هل فاتتك القطار ؟

الطفلُ النّازح الذي صنع ما لا يصنعُه أشدّاءُ الرّجال

المحنُ تصنعُ الرِّجال... طلال أبو غزاله

بقلم
مناف محمد صالح بعاج

هل فاتك القطار

الطفلُ النَّازح الذي صنع ما لا يصنعُه أشدَّاءُ الرِّجال

المحنُ تصنعُ الرِّجال... طلال أبوغزاله

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٩/٣/١٢٨٧)

يتحمل المؤلف كامل المسـؤولية القانونيــة عن محتوى مصنفه ولا يعبّر
هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

هل فاتك القطار / مناف محمد صالح بعاج
طلال أبو غزاله للترجمة والتوزيع والنشر
٢٠١٩
عدد الصفحات ١٩٢ (٢٠١٩/٣/١٢٨٧)

ردمك (١-٢٨-٥٥٩-٩٩٥٧-٩٧٨) ISBN
ردمك (٨-٢٩-٥٥٩-٩٩٥٧-٩٧٨) ISBN E-BOOK

هل فاتك القطار

بقلم

مناف محمد صالح بعَّاج

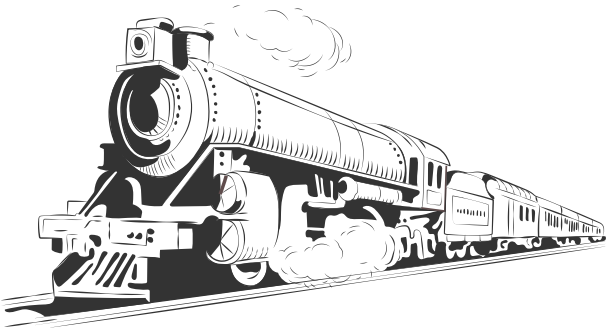

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كلِّ طفلٍ ألجأتْه ظروف الحرب إلى ترك بلده؛ ليستوطنَ خيمةً تفتقر إلى أبسط مقوِّمات الحياة...

إلى كلِّ عزيزِ قومٍ كان ناهياً آمراً في بلده، فردَّه الدَّهرُ منهيَّاً مأموراً في بلاد الغربة، وديار النُّزوح...

إلى كلِّ متقاعدٍ من عملِه، ملَّ الحياةَ حين وجدَ نفسَه بلا عملٍ يشغَلُ أقاتَه الطويلةَ، فصار يشعرُ أنَّه زائدٌ على هذه الحياة، وملَّه ذووهُ حين صار يتدَّخل في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من شؤون حياتِهم ليملأ بذلك فراغَه القاتل....

إلى كلِّ مَن عاندتْه ظروفُ الحياة، فرفع الرايةَ البيضاءَ معلناً استسلامَه لها، وعجزَه عن القيام مرةً أخرى...

إلى كلِّ مَن فاتَه التعليمُ صغيراً، فظنَّ أنَّ قطار العلمِ قد فات، ورضي بالجهل خِدْناً وقريناً...

إلى كلِّ مَن خسِر مالَه، أو فقد تجارتَه، وظنَّ أنَّ قطار الغنى قد فات فلن يعودَ أبداً، فجلس يلطِمُ الخدّين حزناً على ما صار إليه.

إلى كلِّ من فقدَ طرفاً من أطرافِه، أو حاسّةً من حواسِّه، فمات قبل أوان الموت، ودفنَ نفسَه في أرض الخمول، فصار يشعرُ أنَّه عالةٌ على مَن حولَه.

إلى كلِّ واحدٍ من هؤلاء!!!

إنَّ القطارَ لم يفُتْ!!!

وإنَّ اللّحاقَ به مقدورٌ عليه ما دام قلبكُ ينبِضُ بين أضلاعك.

وإنَّ السَّكةَ ما تزالُ ماثلةً أمام عينيك، تدلُّك على القطار إن أردتَ اللّحاقَ به، وركوبَه.

فما عليك إلا أن تضعَ رجلكَ على الطَّريق، لتكونَ أحدَ الواصلين.

ودونَك قصصَ هذا الكتاب؛ لعلَّ فيها سلوةً لك عمَّا أصابك، وحافزاً لنفسك لتنهضَ من جديد.

المقدّمة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين، محمدٍ بن عبدِ الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد فاتني القطار!!!

عبارةٌ نسمعُها كثيراً من أناسٍ استحوذ اليأسُ على قلوبِهم، فماتوا قبل الموت، ودفنوا أنفسَهم في وَحَل الخمول.

وما عادوا يفكِّرون في النهوضِ مرةً أخرى، بل صاروا ينعتون منَ يريدُ النُّهوضَ بالحماقة، وركوبِ الأهوال.

حُبُّ السَّلامةِ يَثني عزمَ صاحبِه عن المعالي ويُغري المرءَ بالكسلِ

هكذا وصفَ الطَّغرائي أمثالَ هؤلاء، الذين لا يريدونَ أن يحرِّكوا ساكناً، ويضيِّعون كلَّ فرصةٍ تُواتيهم.

حتى إذا فاتتْهم ونظروا إليها وهي مولِّيةٌ عنهم صاروا يعاتبونَ القدَرَ أنَّه لم ييسِّرْ لهم ظروفَ الاستفادةِ من تلك الفرصة.

وعاجـزُ الرَّأيِ مِضيـاعٌ لفرصتِه حتّى إذا فات أمرٌ عاتبَ القدَرا

ولا أدري!!!

ما الذي يمنعُ الإنسانَ من النهوضِ بعدَ السُّقوط؟!

وما الذي يَعوقه عن مواصلة السَّير بعد الوقوف؟!

ومـن الذي وصلَ إلـى قمةِ النَّجاحِ دونَ أن يسـقطَ ثـمَّ يقومَ مراتٍ كثيرة؟!

لقـد نـزل الوحيُ على سـيدِ الخلقِ محمـدٍ ﷺ، في سـنِّ الأربعين، فحيـن نزلـتْ عليه آيـةُ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ قام وأيقظَ عزمَـه، وحاربَه الكـونُ كلُّه، وأوذي كثيـراً، وضُيِّـقَ عليـه، وأُخـرِجَ مـن بلـدِه بغير حـق، لكنَّـه صمَدَ وصمـدَ أصحابُه معه.

بل إنَّ الصحابةَ رضوانُ الله عليهم تعلَّموا منه ﷺ وهم كِبار.

وقـد أوردَ البخـاريُّ فـي صحيحه قـول سـيدِنا عمرَ بـن الخطَّاب رضـي الله عنـه: «تَفَقَّهُـوا قَبْلَ أَنْ تُسَـوَّدُوا».

ثمَّ قال بعد أن أوردَه: «وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا، وَقَدْ تَعَلَّمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِي كِبَرِ سِنِّهِمْ».

ولو استعرضْنا قصصَ النَّاجحينَ من الفاتحينَ والعلماءِ والكتَّابِ

والتُّجار، لوجدنا كثيراً منهم قد بدأ في وقتٍ متأخرٍ، واغتنمَ رياحَه حينَ هبَّتْ عليه؛ لأنَّ الهُبوبَ سيُعقِبُه سُكون.

إذا هبَّتْ رياحُكَ فاغتنِمْها — فُعقبى كلِّ خافقةٍ سُكون
ولا تَغفُلْ عنِ الإحسانِ فيها — فما تدري السُّكونُ متى يكونُ

وقد استعرضتُ في هذا الكتابِ قصصاً لأناسٍ بدؤوا مشوارَ نجاحِهم في سنٍّ متأخرةٍ، فقد شابَتْ رؤوسُهم لكنَّ همَمهم كانت أعلى من هممِ كثيرٍ من الشباب الذينَ شابتْ هممُهم، وأحنى همُّ الكسلِ ظهورَهم.

أو أناسٍ وقعوا في الفشل مرّاتٍ ومرّات، لكنَّهم كانوا يقومون بعد كلِّ فشل يصيبُهم، وينفضون عنهم غبارَ ذلك الفشل.

ولا يَضيرُهم ذلك شيئاً؛ لأنَّ السُّقوطَ طبعٌ لدى البشرِ جميعاً، لكنَّ القيامَ بعدَ ذاك السُّقوط هو ما يمتازُ به هؤلاء الأفذاذ عن غيرِهم من البشر.

وبعد!!

فقطارُ النَّجاحِ ماضٍ لا يتوقف.

ولكنْ بالهمَّةِ العاليةِ والسَّعيِ الدَّؤوبِ يستطيعُ السَّاعي إدراكَه وركوبَه بل وقيادتَه.

فإذا أردتَ أن تدركَه، فدونَك السكَّة، وما عليك إلا أن تسيرَ عليها، وتفعلَ كما فعل هؤلاء.

وإن لـم تستطعْ ذلـك الآن، فـلا أقـلَّ مِن أن تتشـبَّه بهـؤلاء الذين أدركوه.

فتشـبَّهوا إن لم تكونوا مثلَهم إنَّ التشـبُّه بالكـرام فَـلاحُ

وكتبها

مناف محمد صالح بعَّاج

إسطنبول ١٩/ ذو الحجّة/ ١٤٣٩هـ

٣/ ٨/ ٢٠١٨م

الطفلُ النَّازح
الذي صنع ما لا يصنعُه أشدَّاءُ الرِّجال

المحنُ تصنعُ الرِّجال..

(طلال أبوغزاله)

(الابتلاءُ نعمة، والمِحنةُ مِنحة)[1].

لم يكن طلال أبوغزاله يردِّدُ هذه العبارةَ إعجاباً بحروفِها، ولا ترنُّماً بتناسق كلماتِها فحسب، بل لأنَّه عاشها سنواتٍ طويلةً طويلةً، فكانت حاضرةً في كلِّ منعطفات حياتِه، حلوِها ومرِّها.

في مسيرةٍ حافلة بالأحداث، مشى خلالَها في طريقٍ مفروشٍ بالأشواك، ولقي من العقبَات ما يتهاوى أمامَه أشدَّاءُ الرِّجال، ويسقط دون بلوغ نهايتِه عظماء الأبطال.

لكنَّ الأملَ الذي في نفس الطفل طلال كان أكبرَ من أن تَحُدَّه العقَبات، وأعظمَ من أن تُطفِئَ نورَه الصُّعوبات.

كان يشعرُ بالألم، لكنَّه يتحسَّسُ الأمل بينَ طيَّاتِ هذا الألم، ويبحثُ عن النِّعَم في كلِّ منْعٍ يواجهه، ويؤمنُ أنَّ المِنَح تُولدُ من رحِم

---

(١) من كلام طلال أبوغزاله.

المحِن، وأنَّ العُسرَ لا بدَّ أن يعقبَه يُسرٌ، وأنَّ فجرَ الخلاصِ سيطلُع، وإن طال ليل الابتلاء.

كان يسيرُ ويتعثَّر، ثمَّ يقومُ من عثْرتِه فينفضُ عن نفسِه الغبار، ويمسحُ الدِّماء، وينزعُ الأشواكَ التي علِقتْ بأقدامِه، ثمَّ يُكملُ المسيرَ إلى هدفِه المنشود.

إنَّه يراه قريباً جدًّا، رغمَ أنَّ غيرَه يراه بعيداً جدًّا، أو لا يراه أبداً.

لقد كان يمشي في نفقٍ مظلمٍ، لكنَّه يُبصرُ بصيصَ النُّورِ في نهاية هذا النَّفق، فيعلمُ أنَّ النِّهايةَ السَّعيدةَ سوف تُنسيه لحَظاتِ الألمِ التي يعيشُها.

ولم تكن ظروفُه سيئةً منذ ولادتِه، فقد كان يعيشُ مع أسرةٍ ميسورةٍ الحالِ في مدينة يافا، وكان لدى أسرتِه فندقٌ يُدِرُّ عليهم من المالِ ما يُغنيهم ويَفيضُ عن حاجتِهم.

لكنّ َدوامَ الحالِ من المحال، ودولابُ الدَّهرِ لا يستقرُّ أبداً، فما كان في الأعلى قد يصبح في الأسفل، وما كان في الأسفلِ قد يصبحُ في الأعلى.

رأيتُ الدَّهرَ دولاباً يدورُ ... فلا حَزَنٌ يدومُ ولا سرورُ

وكم بنَتِ الملوكُ لها قصوراً ... فلم تبقَ الملوكُ ولا القُصورُ

وذلك أنَّ الصهاينةَ دخلوا إلى أرضِ فلسطين فأجْلَوا أهلهَا عنها، واستوطنوها.

ثمَّ راحوا يقطعون أشجارَ الليمونِ والزَّيتونِ ويزرعونَ مكانَها الغرقد.

وأضحت تلك الجنانُ الوارفات تبكي رحيلَ أهلِها عنها، وفراقَ أحبابِها وعُمَّارِها، فالوجوه غيرُ الوجوه، واللغةُ غيرُ اللغة، فقد تغيَّر كلُّ شيءٍ في عشيةٍ وضحاها.

فصارت حالُ الطفلِ طلال كما وصفَ الشاعر حسن المرواني:

نُفيتُ واستوطنَ الأغرابُ في بلديْ ... ومزَّقوا كلَّ أشيائي الحبيباتِ

لو تعصرين سنينَ العمرِ أكملَها ... لَسالَ منها نزيفٌ من جراحاتي

عانيتُ عانيتُ لا حُزْني أبوحُ بِهِ ... ولستِ تدرين شيئاً من معاناتي

لا النَّاسُ تعرفُ ما خَطْبي فتعذِرُني ... ولا سبيلَ لديهِمْ في مواساتي

يرسو بجفنيَ حِرْمانٌ يمصُّ دمي ... ويستبيحُ إذا شاءَ ابتساماتي

واغربتاهُ مُضاعٌ هاجرَتْ سُفُني ... عنِّي وما أبحرتْ منها شراعاتي

توغَّلي يا رماحَ الحقدِ في جسدي ... ومزِّقي ما تبقَّى من حُشاشاتي

أصيحُ والسَّيفُ مزروعٌ بخاصرتي ... والغدرُ حطَّمَ آمالي العريضاتِ

كلُّ القناديـلِ عَـذْبٌ نورُهـا وأنـا تَظَلُّ تشكو نُضوبَ الزَّيتِ مِشْكاتي

ذوتْ أزاهـيرُ روحـي وهي يابسـةٌ ماتتْ أغـاني الهوى ماتتْ حكاياتي

فليمضغِ اليأسُ آمالي التي يبِسـتْ وليُغـرقِ المـوجُ يـا ليـلى بضاعـاتي

ففي ليلةٍ غاب عنها ضوءُ القمر، وغاب معَه العدل، ومواثيقُ السلام المصطنعة وجدَ طلالٌ نفسَه وقد أُخرِجَ من دارِه التي قضى فيها طفولتَه، وخلعَ فيها أجملَ أيامِ حياتِه.

وكان كلُّ شيءٍ فيها موفَّراً له ولإخوتِه، يطلبونَ ما يشاؤون من أهلِهم، فيلبِّي لهم أهلُهم رغبَاتِهم، فالحالُ ميسورة، والأموالُ موفورة.

واليوم!!!

ويح اليوم!!!

هـا هو يمشـي في طابـورٍ طويـلٍ مـن أهالي بلدتِـه.. يمشـون إلى المجهول.

فنُصبتْ لهم الخيام، وقيل لهم: إنَّهم سيقضونَ فيها بعضَ الأيامِ ثمَّ يعودونَ إلى ديارِهم.

وطالتِ الأيام...

فإذا بالخيامِ قد صارت موطناً لأولئك النازحين، من مدينة يافا وغيرِها من المدن الفِلَسطينية.

وإذا بالأيام تتفلَّتُ من بينِ أيديهم، فقد مضى ذاك العهدُ الجميل.

تُـرى هل يرجـعُ الماضـي فإنِّـي أذوبُ لذلـكَ الماضـي حنيناً[1]

ونظر طلال فإذا به يعيشُ في لبنان بعيداً عن أرض الوطن، ولكنْ فضَّلَ اللهُ تعالى عليه وعلى أهله أنَّ شجرةَ الإخاء التي زرعها والدُه قد أينعت اليوم بعد طول تعهُّدٍ بالسقاية والرعاية.

فقد كان لوالد طلال صديقٌ قديم وهو الحاج اللبناني التاجر رضا خليفة، الذي استقبل والد طلالٍ وأسرتَه، وأسكنهم في شقة.

فقد خفَّف هذا الاستقبال من معاناة طلال قليلاً، وكان له دافعاً للمضيِّ قدماً رغم هذه النكبة التي حلّتْ به وبأسرته وبوطنه.

وبرغم ذلك فقد صارت سيول الأسئلة ترد إلى ذهن الطفل طلال؛ ليلقيها على والدِه؛ لعلَّه يفهمُ سببَ طردِه وأسرتِه من أرضهم دون ذنب ارتكبوه، أو جُرمٍ اقترفوه.

ولكنْ!!!

لم يكن والده يجيبه إلا بالوجوم وبدموع القلب قبل دموعِ العين.

فماذا عساه يُجيبُه لو نطق؟!!

---

(١) للشاعر المصري المبدع هاشم الرِّفاعي، من قصيدته الرائعة:

ملَكْنـا هـذه الدُّنيـا قُرونـاً وأخضَعَها جـدودٌ خالدونـا

وماذا عساه يقول والواقعُ أصدقُ ناطقٍ بالجواب؟!!

يكفي هذا الطفل أن ينظرَ حولَه فيجد الإجابات عن كلِّ تساؤلاتِه.

وكأنَّ الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد، كان حاضراً ذاك المشهدَ حين قال:

أبـي قُـلْ لـي بِحَـقِّ اللـ ـــهِ هـل نأتـي إلـى يافَـا
فـإنَّ خيالَهـا المحبـو بَ فـي عَيْنَـيَّ قـد طافـا
أَنَـدْخُـلُـهَـا أعِـزَّاءً بـرَغـم الدَّهـرِ أشـرافاً
أَأَدْخُـلُ غُرفتـيْ قُـلْ لِـي أَأَدخُـلُـهـا بـأحـلامي
وألـقـاهـا وتـلـقـاني وتسـمع وَقْـعَ أقدامـي
أَأَدْخُلُهـا بهـذا القلـ ـب هـذا المُذْنَـفِ الظَّامـي
أبـي لـو أنَّ لـي كالطَّيـ ـر أجـنحـةً لتَحملَنـي
لـطِـرْتُ بـلـهفةٍ رَعنـا ءَ مـن شـوقٍ إلـى وطنـي

ولكنَّها كانت تساؤلاتٍ...

... تساؤلاتٍ لا تجد إجابةً عليها.

إذاً!!!

فقد كُتِبَ على طلال الصغير أنَّ يصُدَّ بجسمِه الغضِّ تلك الظُّروفَ الطَّاحنة، وأن يواجهَ الأمواجَ العاتيةَ قبلَ أن يتعلَّمَ السِّباحة.

لكنَّه قرَّرَ ألا يستسلمَ وألا ينحنيَ أمامَ ما حلَّ به.

لقد كانت أطايبُ الطَّعامِ فيما مضى تحتَ يدِه، يَحارُ في الاختيار بين الحلو والحامض، والحارِّ والبارد، والمائع والجامد.

وكانت أنواع الفاكهة موفَّرةً لديه، يَمدُّ يدَه فيتناولُ منها ما يشتهي من الأحمر والأصفر، والأسود والأخضر.

وها هو اليوم ينتظر هو وأهلُه تلك المساعداتِ التي تُقدَّمُ لهم.

وكانت هذه المساعداتُ بالكادِ تقيمُ الأوَدَ، وتحافظُ على الجسم من الموت جوعاً.

آهٍ أيُّها الشِّبعُ!!!

لقد فقدتُ الإحساسَ بك منذُ زمنٍ طويل.

وأنتِ أيتُها الفاكهة! فموعدي وإياكِ الجنَّة؛ لأنَّ فراقَكِ سيطول، وربَّما لن أراكِ في هذه الحياةِ الدُّنيا.

وقد كان الجوعُ أمراً هيِّناً لدى طلال وأهلِه، رغم أنَّهم لم يكونوا يعرفونَه من قبل.

أمَّا الآن فقد اعتادوه، وصار أهونَ ما يشعرون به هنا.

... لكنَّ جوعاً من نوعٍ آخرَ هو الذي كان يؤرِّقُ مضجعَ طلال ويمنعُ عيونَه من النَّوم.

إنَّه الجوعُ إلى العلم، وهل يشبعُ منهومُ العلم؟!!

والشوقُ إلى العودة لمقاعد الدِّراسة بعد أن فارقَها وفارقتْه.

لقد كان يشتاقُ إلى المقاعد شوقَ الحبيبِ إلى حبيبِه.

ويشتهي عِناقَ الكتبِ وضمَّها، وتقبيلَها وشمَّها.

لكنَّ أقربَ مدرسةٍ إليهم كانت تَبعُدُ ساعتينِ مشياً على الأقدام، يُضافُ إليها ساعتانِ للرُّجوع، فهذه أربعُ ساعاتٍ كواملَ إذا كان الجوُّ معتدلاً، دونَ مطرٍ أو ثلج، ودونَ وَحَلٍ[1] يملأُ الطريقَ ويمنعُ السَّيرَ عليه إلا بصعوبةً بالغة.

فماذا سيفعلُ هذا الطِّفلُ ذو العشَرةِ أعوامٍ أمامَ هذا التَّحدي؟!!

أيمشي كلَّ يومٍ أربعَ ساعاتٍ من أجل الدِّراسة؟!!

أيقطعُ هذه المسافةَ الطويلةَ جَيئةً وذَهاباً ليحظى ببعضِ الدُّروس؟!!

أم أنَّه يستسلمُ للواقعِ كما فعلَ كثيرٌ من أصحابِه وجيرانِه؟!!

أيقبلُ من الغنيمةِ بالإيابِ، أم يجشِّمُ نفسَه ذلكَ العناءَ الطويل؟!!

فلو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ولَم أطلُبْ قليلٌ من المالِ

ولكنَّما أسعى لمجدٍ مُؤَثَّلٍ وقد يُدرِكُ المجدَ المؤَثَّلَ أمثالي[2]

---

(١) الوَحَل بفتح الحاء هو الصحيح، أمَّا بتسكين الحاء فهي لغةٌ رديئة.

(٢) لامرئ القيس.

وقد قرَّر هذا الطِّفلُ أن يواجهَ عدوَّه الذي اغتصبَ أرضَه، وانتزعَ منه كلَّ شيءٍ جميلٍ في حياتِه، ورأى أنَّ السِّلاحَ الذي يملِكه الآن هو **سلاحُ العلم**، فلا بدَّ أن يبذُلَ أقصى ما يستطيعُ ليتسلَّحَ بهذا السِّلاحِ.

وبدأ رحلتَه الدِّراسية...

لقد كانت رحلةً طويلةً طويلة؛ فقد صار يسيرُ أربعَ ساعاتٍ في كلِّ يومٍ ذهاباً وإياباً، عدا عن الوقتِ الذي يقضيه في المدرسة.

لقد كان عناءً كبيراً بالنسبةِ إلى طفلٍ في العاشرة من العمر، لكنَّ هذا العناءَ كان محبَّباً إلى نفسِه، ولذيذاً على قلبه.

ومن تكنِ العلياءُ همَّةَ نفسِه ... فكلُّ الذي يلقاه فيها محبَّبُ
إذا أنا لَم أُعْطِ المكارِمَ حَقَّها ... فلا عَزَّنِي خالٌ ولا ضَمَّني أبُ
فلسْتُ لأمرٍ لَمْ يَكُنْ مُتوقَّعاً ... ولستُ على شيءٍ مضى أَتَعَتَّبُ
أسيرُ على نَهْجٍ يرى النَّاسُ غيرَهُ ... لكُلِّ امرِئٍ في ما يحاوِلُ مَذْهَبُ
ولوْ علِمَ الإنسانُ ما فيهِ نفعُهُ ... لأبصرَ ما يأتي وما يَتَجَنَّبُ
ولكنَّها الأقدارُ تَجري بحكمها ... علينا وأمرُ الغيبِ سِرٌّ مُحَجَّبُ[1]

ثمَّ جاء الشتاءُ ببردِه وثلوجِه وأمطارِه، فزادَ الحملُ على هذا الطِّفلِ؛ لأنَّه لم يكن يملِكُ لباساً يردُّ عنه بردَ الشِّتاء.

---

(١) لمحمود سامي البارودي.

وكانت أمُّه ترى ذلك، فيتقطَّع قلبُها حسرةً وكمداً، كيف أنَّ أولادَها كانوا يلبسونَ أفخرَ الثيابِ ثمَّ لم يعودوا يجدونَ ثوباً واحداً يردُّ عنهم بردَ الشتاء القارس.

فلم تقفِ الأمُّ مكتوفةَ اليدين، بل عمَدَتْ إلى إحدى البطانيَّاتِ[1] التي قُدِّمتْ لهم مساعدةً من الأونروا، فخاطتْ لطلال منها مِعطَفاً ليلبسَه، ويستعين به على ردِّ هذا البرد.

وحين رأى الطلَّابُ صديقَهم طلالاً يرتدي مِعطَفاً مصنوعاً من البطانية، صاروا يضحكون بملءِ أفواهِهم عليه.

لكنَّه لم يخجلْ ولم يتطامَنْ أمامَ استهزائِهم، بل رفعَ رأسَه مفتخراً بما صنعتْه أمُّه من أجله.

وقال لهم بكلِّ اعتزاز:

على العكس؛ فإنَّني سعيدٌ جدّاً بهذا المِعطَف.

إنَّني أشعرُ بالدفءِ، في حينِ أنَّ معاطفَكم ذاتُ منظرٍ جميلٍ لكنَّها لا تدفِّئُ أجسادَكم.

---

(١) يقال لِما يتغطَّى به الإنسان في نومِه: دِثار، ومنه قوله ﷺ: (دثِّروني دثِّروني) حين فجَأه الوحي في غار حراء، وصار الناس اليوم يطلقون على الدِّثار اسم (البطَّانية)، ولعلَّ التسمية جاءت من أنَّ الإنسان أكثر ما يشعر بالبرد في بطنه، فهو يغطي بطنَه لجلب الدفءِ إلى جسمه، فمن ذلك قيل للدِّثار: (بطَّانية).

نعم!!

إنَّ أمِّي ربَّما لم تقدِّمْ لي مثلَ ما عندَكم من معاطف، لكنَّها أجهدتْ نفسَها، وأعطتْني أقصى ما تستطيع، بل إنِّي أشعرُ بحنانِها ودفئِها عندما ألبسُ هذا المِعطف.

يا معاطفَ الدُّنيا!!!

إنَّكِ لو اجتمعتِ جميعاً فلن تعطيني شعورَ الحنانِ الذي أشعرُ به وأنا أرتدي هذا المعطف.

إنِّي لأشعرُ أنَّ أمِّي تحتضنني حين ألبسَ هذا المعطف.

فكلامُكم لا يَضيرُني، ولن ألتفتَ إليه، بل أنتم المساكين؛ لأنَّ أمَّهاتِكم لم تصنعْ لكم كما صنعتْ لي أمّي.

لقد قرَّرَ طلالٌ من وقتِها **أن يُحمِّلَ كلَّ شيءٍ سلبيٍّ في حياتِه معنًى إيجابيّاً**[1].

كان كاللاعب الذي يسعى إلى تسجيلِ الأهداف، لا كالحكم الذي يبحثُ عن الخطأِ ليقفَ عندَه.

فما عاد يُهمُّه ما يقولُه الآخرون طالما أنَّه يسيرُ في الطَّريقِ الذي يريدُه لنفسِه.

---

(١) من كلام طلال أبوغزاله.

كانـت لديـه رسـالةٌ يريـدُ أن يُوصَلها إلـى العالم، وهـي **(أن يُثبتَ للآخريـن أنَّـه يسـتحقُّ أن يكونَ عنـدَه وطن)**[1]

حتى وهو في دار المنفى؛ فإنَّه لا بدَّ أن يرفعَ اسمَ وطنِه عالياً، حتى يقالَ إنَّ هذا النَّاجحَ قد صنعَ نجاحَه رغمَ ظروفِه القاهرة، ورغمَ جراحِه النَّازفة، ورغمَ أنَّه يعيشُ خارجَ وطنِه، فإنَّ وطنَه يعيشُ داخلَ قلبِه.

إنَّـه يمنِّـي نفسَـه بالعودةِ فـي كلِّ ليلـة، لكنَّـه لا يريدُ أن يعـودَ إلى وطنِـه جاهلاً...

بل متسلِّحاً بسلاح العلم.

لا يريدُ أن يعودَ عالةً يُثقل كاهل الوطن....

بل يريدُ أن يكون عضواً نافعاً، وفرداً منتجاً.

لا يريدُ أن يكون جرحاً يزيدُ آلامَ وطنِه...

بل يريدُ أن يكون دواءً يشفي جراح الوطن وآلامه.

فلسـطينُ الحبيبـةُ كيـف أغفـو ... وفـي عينـيَّ أطيـافُ العـذابِ

فلسـطينُ الحبيبـةُ كيـف أحيـا ... بعيـداً عـن سـهولِكِ والهضـابِ

تمـرُّ قوافـلُ الأيـامِ تَـروي ... مؤامـرةَ الأعـادي والصِّحـابِ

---

(١) من كلام طلال أبوغزاله.

تناديني السُّفوحُ مخضَّباتٍ ... وفي الآفاقِ آثارُ الخِضابِ
تناديني الشواطئُ باكياتٍ ... وفي سمعِ الزَّمانِ صدى انتحابِ
تناديني الجداولُ شارداتٍ ... تسيرُ غريبةً دونَ اغترابِ
تناديني مدائنُكِ اليتامى ... تناديني قراكِ معَ القِبابِ
ويسألُني الرِّفاقُ ألا لقاءٌ ... وهل مِنْ عودةٍ بعدَ الغيابِ
أجلْ سنقبِّلُ التُّربَ المندَّى ... وفوقَ شِفاهِنا حُمْرُ الرِّغابِ
غداً سنعودُ والأجيالُ تصغي ... إلى وقْعِ الخُطا عندَ الإيابِ
نعودُ معَ العواصفِ داوياتٍ ... معَ البرقِ المقدَّسِ والشهابِ
معَ الأملِ المجنَّحِ والأغاني ... معَ النَّسرِ المحلِّقِ والعُقابِ
معَ الفجرِ الضَّحوكِ على الصحارى ... نعودُ معَ الصباحِ على العبابِ
معَ الرَّاياتِ داميةَ الحواشي ... على وهجِ الأسنَّةِ والحِرابِ[١]

ولم يكن اللباسُ وحدَه هو الهمَّ[٢] الذي يعانيه طلال وأهلُه، فقد كان تأمينُ الطَّعامِ اللازمِ مسؤوليةً أخرى تؤرِّقُهم، فالجوعُ سِكِّينٌ لا ترحم، ولا يرقُّ قلبُها للمتضرِّعين.

---

(١) للشاعر الفلسطيني: (أبو سلمى) عبد الكريم الكرمي.

(٢) (هو) هنا ضمير فصل لا محلَّ له من الإعراب، وكلمة (الهمَّ) خبر كان، ولذلك فهي منصوبة. ومثلُه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ....﴾.

ولـذا فقـد كانـت أمُّ طـلال تذهب إلـى الجبـال المحيطـة بالحيّ، وتصعَـدُ إليهـا لتقطِـفَ بعـضَ الأعشـابِ التـي تـؤكل، وخاصـةً ورقَ الزعتـرِ البرّي.

فقـد كانـت أمُّ طـلال تضعُ شـيئاً مـن ورق الزَّعتـر في رغيـفِ خبزٍ وتـرشُّ عليـه قليـلاً مـن الملـح، فيـأكلُ طـلال تلـك اللُّفافةَ علـى جوعٍ فيجـدُ لها لـذَّةً قد لا يجدُهـا الملوكُ وهـم يتناولون أطايـبَ الطَّعام؛ لأنَّه كان يأكلُهـا علـى جوعٍ، فيَحمـدُ اللهَ تعالى على العافيةِ التـي جعلتْ لهذا الطَّعامِ البسـيطِ مذاقـاً طيباً.

وقد كان أصدقاءُ طلال يتعجَّبونَ من سعادتِه العارمةِ حين يأكلُ تلك اللُّفافةَ، فيريدونَ معرفةَ السِّرِّ وراءَ تلك السَّعادة.

تُرى ما الذي يأكلُه طلال لكي يشعرَ بتلك السَّعادةِ العارمة؟!

ولماذا يخبِّئُ عنَّا طعامَه؟!!

لا بدَّ أنَّه يأكلُ طعاماً لذيذاً ويُخفيه عنَّا.

فاتَّفقَ أصحابُه أن يدبِّروا له مَقْلباً ليرَوا رَدَّةَ فعلِه، ففتح أحدُهم حقيبةَ طلال وأخذَ منها لفافةَ الزَّعتر ثمَّ خبَّأها.

ربَّمـا لـم تكـن تلـك اللّفافة تعنـي كثيـراً لهـؤلاء الطُّـلاب، لكنَّها

كانت غداءَ طلال، وإذ فقَده فهذا يعني أن يظلَّ جائعاً إلى المساء حين يعود إلى البيت.

ولعلَّه لن يجدَ مساءً ما يسدُّ رمقَه.

فعندما حان موعدُ الطَّعامِ بدأ الطلابُ يفتحون حقائبَهم ويستخرجونَ طعامَهم، ففتح طلال حقيبتَه لكنَّه لم يجد لفافة الزَّعتر، فأسرَّ طلال ذلك في نفسِه ولم يُبدِ لزملائه شيئاً، وكظمَ غيظَه، وكتمَ سهمَ الحزنِ في كبدِه.

جحدتُها وكتمتُ السَّهمَ في كبدي جُرحُ الأحبَّةِ عندي غيرُ ذي ألمِ[1]

فسأله رفاقُه: لماذا لا تأكل يا طلال؟!

فقال لهم: لقد تناولتُ طعامي والحمد لله.

فألحُّوا عليه بالسُّؤال، لكنَّه ثبتَ على جوابه ولم يُبدِ لهم رغبةً في الطَّعام.

فتعجَّب زملاؤه من ذلك الإصرار رغم الجوع الشديد.

لقد علَّمته ظروفُ الحياةِ القاسية أن يتلقَّى الصَّدَماتِ بثباتٍ، وأن يصمدَ لها صمودَ الجبالِ الرَّاسياتِ في وجهِ العواصف، مهما اشتدَّت.

---

(١) لأمير الشعراء أحمد شوقي من قصيدته: (ريم على القاع).

لقد كانت تلك الحادثة قاسيةً جدًّا على طلال، وحفرتْ في قلبِه أخاديدَ من الأسى، لكنَّه تجاوزَها، فقد اعتادَ أشدَّ منها، فلم يعد يبالي مثلَها.

إذا اعتادَ الفتى خوضَ المنايا فأهونُ ما يمرُّ به الوحولُ[1]

وحينَ كثرت احتياجات أهلِ طلال حاولوا البحثَ عن وسيلةٍ لكسب المال، ولكنْ كيف السَّبيلُ إلى ذلك، وقد سُدَّت جميعُ الأبوابِ في وجههم؟!!

فقرَّر طلال أن يعملَ في الليل رغمَ السَّاعاتِ الطِّوالِ التي يقضيها في المشي إلى مدرسته والرُّجوعِ منها.

وصار يطرقُ أبوابَ المعاملِ والمحالِّ التِّجارية ليجمعَ شيئاً من المال ولو قليلاً، يعينُ به أهلَه لسدِّ بعضِ احتياجاتِهم.

فعمل في معملٍ لصناعةِ المثلجات ليلاً، حيث كان يغلِّفُ المثلجاتِ ويضعُها في صناديق؛ لتُخزَّن بعد ذلك ثمَّ يُصارَ إلى بيعها.

وكم كانت سعادتُه كبيرةً حين علم من أصحابِ العملِ أنَّه يستطيعُ الأكلَ من تلك المثلَّجات.

لقد كانت ليلةً لا ينساها الطفل طلال؛ فقد شعر بأنَّها من ليالي

---

(١) للمتنبِّي.

(ألفِ ليلةٍ وليلة)؛ حيث قضى الليلَ كلَّه وهو يأكل من تلك المثلَّجات التي نسي طعمَها منذ زمنٍ طويل.

إنَّ شعورَه في تلك الليلة لا يُنسى مهما تقادم العهد وتطاولَ الزمن؛ فهو كشعور الشريف الرضي وهو يقول:

يـا ليلـةَ السّـفْحِ هـلاّ عُـدْتِ ثانيةً ... سـقى زمانَـك هطّـالٌ مـن الدِّيَـمِ

ماضٍ من العيش لو يُفدى بذلْتُ لهُ ... كَرائِـمَ المالِ مِـنْ خَيلٍ ومِـنْ نَعَمِ

لـمْ أقضِ مِنكِ لُبَانـاتٍ ظَفِرْتُ بهَا ... فَهَـلْ لـيَ اليـومَ إلاّ زَفْـرةُ النَّـدَمِ

فلَيـتَ عَهـدَكِ إذْ لـمْ يَبقَ لـي أبَداً ... لمْ يُبـقِ عِندي عَقابيلاً مِن السَّـقَمِ

تَعَجّبُـوا مِنْ تَمَنّـي القَلْـبِ مُؤلمَهُ ... وَمَـا دَرَوْا أنَّـهُ خِلْـوٌ مِـنَ الألَـمِ

رُدُّوا علـيَّ ليالـيَّ التـي سَـلَفَتْ ... لـم أنسَـهنَّ ولا بالعهـد مـن قِـدَمِ

ثمَّ صار يضعُ المثلجات في صندوق، ثمَّ يحملُ ذلك الصُّندوق ويطوف في شوارع بيروت وهو ينادي: (بوظة سْتِيْكْ... بوظة سْتِيْكْ).

لقد كان ما يحصِّلُه من بيع تلك المثلَّجاتِ قليلاً جدّاً، لا يعدو أن يكون قروشاً قليلةً يُعطيها لأهله، لكنَّ تلك القروشَ القليلة كانت خيراً من العدم.

إنَّ عملَه في بيعِ المثلَّجاتِ زادَ بردَ اليقينِ في نفسِه بأنَّ الحياةَ لا

تُسلِسُ قِيادَها إلا لمن أخذها بحقٍّ، وامتلكَ أسبابَ القوة، وأعدَّ نفسَه لمواجهةِ صعوباتِها.

ولذلكَ فقد حاولَ طلال أن يبذل أقصى ما يستطيع ليجعلَ لنفسِه مكاناً تحتَ الشَّمس، ومكانةً في النفوس.

ذهبَ مرةً إلى صاحبِ محلٍّ لبيع الأسطوانات الموسيقية الكلاسيكية، ليعمل عندَه، وحين سأله صاحبُ المحلِّ عن الخبرات التي يملِكها في هذا المجال، أجاب طلالٌ بأنَّه لم يسبق له العملُ في هذا المجال، ولا خبرةَ لديه فيه، لكنَّه طلب من صاحب المحل أن يعملَ عنده مجاناً لشهر كامل.

وبعد هذا الشَّهر فلصاحبِ المحل أن يطردَه إن لم يرَه أهلاً للعمل.

وفي هذا الشَّهر كان طلال يسابق الزَّمن، فكلُّ لحظةٍ تمرُّ ولا يتعلَّمُ فيها شيئاً جديداً تقرِّبُه من الخطر.

وكان ذلك الأمرُ تحدِّياً صعباً لطلال، لكنَّه صار يعشق التحديات، بل إنَّه يحسُّ التقصير إن كانت أيامُه تمرُّ دون تحدٍّ جديد، وعوائقَ أخرى.

وبعدَ مضيِّ شهرٍ كان قد أتقنَ كلَّ ما يمتُّ إلى هذا العمل بصلة، وصار يُديرُ المحلَّ وحدَه دون عونٍ حتى من صاحب المحلّ.

ورغمَ ذلك فقد كان المال المكتسب من هذين العملين لا يكاد

يفي بالغرض، ولا يسدُّ إلا حاجاتٍ قليلةً من متطلبات الأسرة.

ممَّا اضطرَّ طلالاً إلى أن يعمل في المحاسبة أيضاً؛ فقد كان يذهب إلى محالِّ الخضار التي تبيع بالجملة لتجار التجزئة، فكان يُعد لهم الحسابات ويدوِّنُها للتجار.

لقد كانت تلك الأعمالُ ثقيلةً على هذا الطفل المسكين، لكنَّه كان يرى أنَّها بثقلِها أخفُّ وطأةً من أن يمدَّ يدَه إلى النَّاس أعطَوه أو منعوه.

ولم يكن يريدُ أن تكونَ يدَه هي اليدَ السُّفلى، بل كان يسعى بكلِّ جهدِه لأن تكونَ يدَه هي اليدَ العليا، وكان لسان حالِه قولَ الشاعر:

وإنَّما رجلُ الدُّنيا وواحدُها مَن لا يعوِّلُ في الدُّنيا على أحدِ

وحين أنهى المرحلةَ الإعدادية، نظرَ أمامَه فإذا به قد وصل إلى طريقٍ مسدودِ النِّهاية؛ إذ لم يكن هناكَ مدارسُ ثانويةٌ مجانية.

فقد كان طلال يرغب في إتمام دراستِه، لكنَّه لا يملكُ المالَ الكافيَ لدفعِ أقساطِ المدرسة، فصارتْ حالُه كحال الشاعر عبدِ الله بن معاوية حين قال:

أرى نفسي تتوقُ الى أمورٍ يقصِّرُ دونَ مَبلغِهنَّ حالي
فلا نفسي تطاوعُني ببخلٍ ولا مالي يبلِّغني فَعالي

ولكنْ!!!

كيفَ السَّبيلُ إلى ذلكَ وليسَ هناك مدارسُ تَفتحُ أبوابَها للفقراء.

مساكينُ أولئك الفقراء!!!

فإنَّ حرمانَهم لا يقتصر على الطَّعامِ والشَّرابِ واللباسِ فحسب، فحتى العلمُ صارَ حسرةً عليهم، وحِكراً على أصحابِ الأموال.

المالُ حلَّلَ كلَّ غيرِ محلَّلٍ | حتَّى زواجَ الشِّيبِ بالأبكار
ما زَّوجوا تلكَ الفتاةَ وإنَّما | بِيْعَ الصِّبا والحسنُ بالدِّينار[1]

لكنَّ طلالاً لم ييأس؛ فليس اليأسُ من خلائقِه، ولا النُّكوصُ من طبائعِه، فسهر في تلك الليلةِ يفكِّرُ في حلٍّ لهذه المعضلة التي واجهتْه.

وفي اليوم الثَّاني كان يحملُ أوراقَه باتِّجاه جمعية المقاصد الإسلامية في بيروت؛ ليقدِّمَ طلبَ انتسابٍ إلى هذه المدرسة.

وبعدَ أن أجرى المقابلةَ وقدَّمَ الأوراقَ الثُّبوتيةَ كاملةً طلبَ منه الموظف الذي قابله دفْعَ القسطِ الأولِ من أقساط المدرسة، فقال له طلال: إنني لا أملكُ مالاً لكي أدفعَه، لكنَّني أريدُ أن أسجلَ عندكم بمِنحةٍ دراسية.

---

(١) لأمير الشعراء أحمد شوقي.

فقـال له الموظـف: المِنحـة تُعطى بعـد أن يُثبت الطالـبُ جدارتَه واجتهـادهَ، فكيـف أعطيـك المنحة وأنـا لا أعرف عنك شـيئاً؟!!

فقال له طلال: جرِّبوني ثمَّ احكموا عليَّ.

فغضبَ الموظف منه، ثمَّ قال له: إن لم تكن تملك المالَ فلماذا أضعتَ لي وقتي؟!!

اخرجْ فلا مكانَ لك عندي في المدرسة.

وخرج طلالٌ يجرُّ رجليه جرَّاً من المدرسة.

وقد تراكمت عليه الهموم والأحزان من كلِّ حدَب وصوب.

إنَّه لم يكن يحزنُ لفقره وحاجتِه، لكنْ لمعاملةِ النَّاسِ لهذا الفقير.

فكم مِن فقيرٍ قد حُكم عليه بالإعدامِ منعاً من إتمام دراستِه!!

وكم من عبقريٍّ دُفنتْ عبقريَّتُه في مستنقع الحاجة والعوَز!!!

وكم من نسرٍ في سماء العلم والمعرفةِ هاضَ الفقرُ جناحَه، فسقط في وادي الجهل فلم يحدِّثْ نفسَه بالطيرانِ مرةً أخرى!!!

لكنَّه حين عاد إلى البيت استعادَ عزمَه، واستردَّ نشاطَه، ثمَّ اعتصرَ دماغَه ليفكِّرَ في حلٍّ يُنجيه من تلك المشكلة العويصة؛ لأنَّه قد مشى في طريق الدراسة، فلا بدَّ أن يكملَ هذا الطريق الذي سار فيه.

وفي الليل كان يطرق بابَ (محمد سلَام) رئيسِ جمعية المقاصدِ الإسلامية، وقد استغربَ رئيس الجمعية من هذا الطفل الذي يطرقُ بابَه في الليل.

ما الذي يريدُه طفلٌ من رئيس جمعية، في مثل هذا الوقت من الليل؟!!

وحين حكى طلالٌ قصتَه لرئيس الجمعية، قال له: وماذا أستطيعُ أن أفعلَ لك يا بني؟!!

كيف ستدرسُ في المدرسة وأنت لا تملك قسطَ التَّسجيل؟!

فقال له طلال: جرِّبْني فصلاً واحداً في الدوام، وأتعهَّدُ لك بأن أكونَ الأولَ على جميع الطلاب، ليس في المجموعِ وحدَه، بل في كلِّ مادَّةٍ على حدة.

وإن نال طالبٌ آخرُ درجةً أعلى منِّي في أيِّ مادَّةٍ من الموادّ فاطردني من المدرسة.

ولا أظنُّ أنَّ وجودَ طالبٍ لفصلٍ واحدٍ سيؤثر في بقيةِ الطلاب.

فقال له المدير: أراك واثقاً بنفسك كثيراً يا بني؟!

فقال طلال: **(إنَّني مضطرٌ إلى أن أكونَ واثقاً بنفسي)**[1].

---

(١) من كلام طلال.

إذا لـم يكـن إلا الأسـنَّةَ مركبٌ فمـا حيلةُ المضطـرِّ إلا ركوبُها

فأُعجب رئيس الجمعية بمنطق طلال، الذي كان يحاورُه محاورةَ رجلٍ حنَّكتْه التجارِب، لا محاورةَ طفلٍ صغير.

وقررَ أن يمنحَه هذه الفرصة، ويصبرَ عليه فصلاً دراسياً واحداً؛ ليرى ما يمكنُ لهذا الطفل الواثق بنفسه أن يفعل.

ودخل طلال المدرسةَ.

ومرَّتِ الأيام... فإذا به ينال المركزَ الأولَ على جميع طلاب المدرسة، لا بل أكثرَ من ذلك بكثير؛ لأنَّه كان يفكِّرُ بدخول الجامعة وهو على مقاعد المدرسة الثانوية.

لكنَّ دخولَ الجامعةِ أبعدُ منالاً، وأصعبُ من دخول الثانويةِ بكثير؛ فقد سمع طلال بمِنحةٍ جامعيةٍ تقدِّمُها (الأونروا) لطالبٍ واحدٍ في لبنان، وهو الطَّالبُ الأولُ على مدارسِ لبنانَ كلِّها، فينبغي للطالب الذي يرغب في نيل تلك المنحة أن يبذل جهداً مضاعفاً.

لكنَّ تلكَ الدراسةَ كانت لأجل حلمٍ ليس هذا وقتَه، فكيفَ سيسدُّ حاجاتِه الآن؟!

فصارت الأفكارُ تصطرعُ في رأسه كما تصطرعُ الخيولُ في حلْبةِ[1] السِّباق، فيكاد يشعرُ بحوافرها تقرع جوانبَ رأسه.

فما كان من طلال إلا أنَّه صار يعملُ ليلاً في ترجمةِ الكتب من اللغة الإنكليزية إلى العربية، ورغم أنَّها كانت تصدُر بأسماء غير اسمِه، فقد رضي بذلك لحاجته إلى المال الذي ينفقه على نفسه وعلى أهله.

لقد كان يسهر ساعاتٍ طوالاً من الليل لينجزَ أكبرَ قدْرٍ من التَّرجمة؛ كي يحصِّلَ ما يحتاج إليه من المال.

لكنَّ هذا السهر عاد عليه بالنَّفع العميم؛ فقد صار ينالُ الدَّرجةَ التَّامةَ في مادتي اللغةِ العربية والإنكليزية في جميع امتحاناته.

بل إنَّه حين دخل الكليةَ أُعفي من حضور محاضرات اللغة العربية والإنكليزية؛ لأنَّ مستواه فيهما أعلى من مستوى المحاضرات التي سيحضرُها، حتَّى إنَّه حين نال الشهادةَ الجامعيةَ كُتب على شهادتِه: إنَّه لم يحضر محاضرات اللغة العربية والإنكليزية لعدم حاجته إلى ذلك.

وقد صار الطلابُ يلجؤون إليه ليشرحَ لهم ما استعصى عليهم

---

(١) حلْبة: بسكون الباء، أمَّا (حلَبة) بفتح الحاء فهي جمعُ (حالب)، كما نقول: ظلَمَة: جمعُ ظالم، وكتَبة: جمع كاتب.

فهمُه في دروس اللغة الإنكليزية، فصار يعطي دروساً خصوصيةً في اللغة الإنكليزية، وهو ما يزال على مقاعد الدراسة، وكان لهذه الدروس نفعٌ آنيٌّ؛ لأنها يستعينُ بأجرها على مشاقِّ الحياة، ونفعٌ مستقبليٌّ أنَّه تقوَّى كثيراً في مادتي اللغة العربية والإنكليزية.

وقد وفى طلال بوعده فكان الأول على مدرستِه ليس في المجموع العامّ فحسب، بل في الموادِّ كلِّها، كلّ مادة على حدة.

بل إنَّه استطاع أن يحقّقَ أعلى من الوعد الذي قطعه على نفسه، وذلك أنَّ مِنحةَ دخولِ الجامعةِ لم تكن بالأمر الهيِّن، ولا بالفرصةِ قريبةِ المنال، لمن لا يملك المال؛ لأنَّها لن تتهيَّأ إلا لطالبٍ واحدٍ من الطلاب النازحين.

لكنَّ طلالاً الذي اعتادَ أصعبَ منها استطاعَ بالعزمِ والإصرارِ وتوفيقِ الله أن ينالَها؛ حيث كان الأولَ على لبنان، فنال هذه الفرصةَ الوحيدةَ، ودخل الجامعة.

آهٍ منكَ يا قصرَ الأحلام!!!

كم كنتَ بعيداً عنِّي، رغم أنَّك قريبٌ من قلبي!!

وكم كان الطَّريق إليك طويلاً!!!

وكم كانت العقباتُ في هذا الطريق كثيرة!!!

ولكنَّي قد اقتربتُ منك كثيراً، وهأنذا أمسكُ بحلْقة الباب لأقرعَها.

نعم!!!

لقد حظيتُ بدخول الجامعة، لكنِّي ما أزالُ على باب هذا القصر المنيف.

ولا بدَّ من السعي الحثيث لإكمال المشوار الذي بدأتُه.

وكان طلال ينوي أن يسجِّلَ في أحد أقسامِ الآداب، في اللغة العربيةِ أو الإنكليزية؛ لإتقانِه لهاتين المادَّتين.

لكنَّ اللهَ تعالى قدَّرَ له أمراً آخرَ وشاء له طريقاً مغايراً.

فما شئتَ كانَ وإن لمْ أشأْ وما شئتُ إن لنْ تشَأْ لم يكنْ[1]

فقد حضر مع صديقٍ له للتسجيل في الجامعة، فكانت كليةُ الآدابِ مغلقةَ الأبوابِ في ذاك اليوم.

فقال له صاحبُه: فلنسجِّلْ في كلية إدارة الأعمال، وبعدَ ذلك انقلْ سجلَّكَ إلى كليةٍ أخرى؛ فلن يتسنَّى لك الحضورُ في كلِّ وقت.

وفعلاً فقد سجَّل طلالٌ في كلية إدارة الأعمال، وكان منه ما كان فيما بعد.

---

(١) للإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

وكانت المنحةُ التي حظِي بها طلال تتضمنُ مع أقساطِ الجامعة، المبيتَ، وثلاثَ وجَباتٍ في اليوم.

وكان مع وجبَات الطعامِ المقدَّم حبةُ فاكهةٍ في كلِّ وجبة، فكان طلال يحتفظ بهذه الحبةِ في خزانتِه، وفي نهاية الأسبوع تجتمع عنده إحدى وعشرونَ حبةَ فاكهةٍ يحملها في كيس ليأكلَها مع أهله.

فتكونُ زيارةُ طلالٍ لهم عيداً أسبوعياً ينتظرونَه بفارغ الصبر؛ فإنَّه لم يكن يحسُّ طعمَ تلك الفاكهة إلا حينَ يأكلُ أهلُه معَه، فهو يتلذَّذُ بتلك الفاكهة ويُحسُّ طعمَها في فمه حين يراها في أفواهِ إخوتِه، كما يصف أبو العلاء المعرِّي:

فلا نزلَتْ عليَّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

وقد كان يذهبُ إلى الجامعة مشياً على الأقدام، لكنَّه حين يكون متأخراً يركب القطار، لكنَّ ركوبَ القطار لم يكن بالأمر السهل بالنسبة إليه؛ لأنَّه لم يكن يملك ثمن تذكرة الرُّكوب، فكان يركب لمحطةٍ واحدةٍ ثمَّ ينزل بعدَها منتظراً القطار الذي بعدَه، خوفاً من صعود مفتِّش التذاكرِ، وسؤالِه عن تذكرته.

ومرَّت الأيامُ يقفو بعضُها بعضاً...

وها هو طلال قد تخرَّج في الجامعة[1]، ونال الشهادةَ التي يصبو إليها بعدَ طولِ عناء وبامتياز مع مرتبة الشرف.

لكنَّه لم يَضَعْ عصا التَّسيار ويقلْ لنفسه: لقد انتهى المشوار؛ فطريق البحث عن عملٍ مناسبٍ كان هو الآخرُ طويلاً جدَّاً، وصعباً جدَّاً، وضيِّقاً جدَّاً.

فبدأ طلالٌ يراسلُ الشركات والمصانعَ ويعرِضُ عليها إمكاناتِه، وخبراتِه.

... لكنَّ الرسائلَ كانت تأتيه تِباعاً بعدمِ وجودِ شاغرٍ لديها.

فلم يفُتَّ ذلكَ في عضُدِه ولم يثبِّطْ همَّتَه ونشاطَه، فقد وطَّنَ نفسَه لذلك، وصار يتوقَّعُ الرَّفضَ في كلِّ مرةٍ يراسلُ فيها شركةً من الشركات.

بل إنَّه صار يجمع رسائل الرفض التي كانت تأتيه من الشركات، وكلَّما جاءته رسالةٌ من شركةٍ ما احتفظَ بها، وبعثَ رسالةً غيرَها إلى شركةٍ أخرى، حتى اجتمعَ عندَه من رسائل الرَّفض ما ملأَ حقيبةَ سفرٍ كبيرةً.

ولم ييأس طلال؛ لأنَّه يعلم أنَّ فرصتَه لمَّا تحِنْ بعد، ولا بدَّ أن تأتيَ في يومٍ ما مهما طال انتظارُها.

---

(١) الصَّحيح أن يقال: تخرَّجَ في الجامعة، أمَّا تخرَّج من الجامعة فهو خطأ شائع.

وفوجئَ ذاتَ يومٍ برسالةٍ من إحدى الشركاتِ تطلبُ فيها محاسباً، فحثَّ خُطاه نحوَ تلكَ الشركة، وحصل على الوظيفة.

(تمسَّك بالفرصة حين تأتيك)[1]، قال طلالٌ لنفسه.

نعم!!!

إنِّي أرى أنَّني أستحقُّ أعلى من هذه الوظيفة، ولكنِّي سأعملُ بها ثمَّ سأبحثُ عن عملٍ آخرَ أفضلَ منها.

لقد علَّمته الحياةُ أنَّ الفرصةَ كالطائر، إذا طار فقد لا يعودُ، وأنَّ العجزَ كلَّ العجزِ في أن يُضيعَ المرءُ فرصتَه ثمَّ يجلس نادباً حظَّه على ضياع تلك الفرصة.

وعاجزُ الرأيِ مِضياعٌ لفرصتِه حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتبَ القَدَرا

وقد علَّمتْه التجارِبُ الكثيرة التي خاضَها **(أنَّ المتحرِّكَ الأولَ في كلِّ نشاطٍ هو الذي يسبِق)**[2].

وعليه فقد قرأ مرَّةً مقالاً فيه دعايةٌ عن مؤتمرٍ (**للمِلكية الفكرية**)، فأثار هذا الاسمُ فضولَه، وهو الذي يعشق المغامرات واستكشاف المجهول.

---

(١) من كلام طلال أبوغزاله.

(٢) من كلام طلال أبوغزاله.

ترى!!!

ماذا يعنون بالملكية الفكرية؟!!

وهل يمكنُ تملُّكُ الأفكار؟!!

هل هم جادُّون في هذا الإعلان، أم أنَّهم يخدعون النَّاس؟!!

لكنَّه قرَّر أن يخوضَ تلك التجرِبةَ ويحضرَ هذا المؤتمرَ على حسابِه الخاص؛ لأنَّه حين عرَض فكرةَ حضورِ المؤتمرِ على المسؤولينَ في الشركة صاروا يضحكون عليه، وظنُّوا أنَّه يهرِفُ بما لا يعرف.

لكنَّ هذا الضحكَ عاد ندماً وخجلاً بعدَ عدةِ سنوات، حين رأى أصحابُ الشركات الذين كان طلال يعرِضُ فِكَرَه عليهم، أنَّ قضيةَ المِلكيةِ الفكرية صار لها شأنٌ عظيمٌ.

فها هي شركة طلال أبوغزاله للملكية الفكرية أكبر شركة في الدنيا مختصة بهذا الشأن، ولمجموعة طلال أبوغزاله ما ينوف على مئة مكتب في أرجاء المعمورة.

وقد ظهرَ ذلكَ جليّاً في عام ٢٠٠٣م عندما اجتمعَ عددٌ من مندوبي الدولِ العظمى وقادةِ كبرياتِ الشركاتِ في العالم، بعد أحداثِ الحادي عشر من سبتمبر، للاتفاق حول مسائلَ تتعلَّقُ بحمايةِ وأمنِ المعلومات.

وقد كان كوفي عنان هو الأمينَ العامَّ للأمم المتحدة، فطلبَ من المجتمعين انتخابَ لَجنةٍ من أجل إدارةِ هذا الفريق المجتمِع، فتمَّ انتخابُ ستةِ أشخاصٍ من بين ذاك الجمع، وكان طلالٌ من بين هؤلاءِ الستَّة.

ثمَّ طُلِبَ انتخابُ رئيسٍ لهذه اللجنة، وبعدَ التَّشاورِ وتبادلِ الآراءِ تمَّ انتخابُ طلال أبوغزاله رئيساً لهذه اللجنة.

وكان الحديثُ الذي تتداولُه وسائل الإعلام في تلك الأيام أنَّ الإسلامَ دينُ إرهابٍ، وأنَّ المسلمين يروِّعون الآمنين في كلِّ مكانٍ يحلُّون فيه، فخطرتْ في ذهن الدكتور طلال فكرةٌ وأراد أن يجعلَها واقعاً.

فطلبَ من المجتمعين أن يلقيَ كلمةً أمام هذا الحفل، فوافقوا على ذلك رغم أنَّ البروتوكولات تمنع الحديث أو إلقاء أي كلمة للأعضاء، لكنَّهم تجاوزا عن ذلك ربَّما لأنَّه صار رئيساً لهذه اللجنة، فوقف وقال:

(أشكرُكم على ثقتِكم بي، وانتخابي رئيساً عليكم رغمَ علمِكم بأنِّي فِلسطينيٌّ أردنيٌّ عربيٌّ مسلم)[1].

---

(١) من كلام طلال أبوغزاله.

فساد الصَّمتُ في القاعة...

ولكنَّه كان الصَّمتَ الذي يسبِقُ العاصفة؛ فقد اشتعلتِ القاعةُ بالتَّصفيق الحارِّ لطلال أبوغزاله على كلمتِه هذه.

حتَّى إنَّ كوفي عنان قال له بعدَ ذلك: (إنَّ عبارتَك القصيرةَ هذه كانت كافيةً للردِّ على كلِّ التُّهمِ الباطلةِ التي وُجِّهتْ إلى المسلمين).

لقد كبِرت تلك النبتةُ الصغيرةُ التي زرعها طلال وتعهَّدها بالرِّعاية والسِّقاية؛ فقد افتتح طلال أبوغزاله فيما بعد شركتَه الخاصةَ به.

ولكنَّه لم يكن يملكُ المالَ الكافيَ لافتتاح مكتب؛ فصار يُديرُ العملَ من صُندوقِ سيارتِه.

وكان بمثلِ ذاك النَّشاط الذي بدأ به حين كان يمشي أربعَ ساعاتٍ طوالٍ من وإلى مدرستِه، وكيف لا يكون نشيطاً وها هو يقطفُ الثمارَ الأولى لذلك التعب الطويل؟!!

ثمَّ دارتِ الأيام حتى صارت شركة طلال أبوغزاله ذاتَ شهرةٍ واسعة، طبَّقتِ الآفاق.

لكنَّ طلالاً خسر كلَّ ما كان يملِكه إبانَ الغزوِ العراقي للكويت، فعاد إلى الصِّفر من جديد.

لكنَّه لم ييأس، ولم يقتلْ نفسَه حسرةً على ما فقده بعد هذه السنين،

بل جدَّ واجتهدَ وثابرَ من جديد، حتى صارت مجموعتُه من بين أكبرِ مئةِ شركةٍ في العالم للخِدْماتِ المهنية، والمجموعةَ الأولى في العالم في خدمة المِلكية الفكرية، بأربعِمئةِ علامةٍ مسجَّلة.

وهي المجموعةُ الوحيدةُ في تخصُّصاتِها حسب (فوربس).

لقد وصل طلال أبوغزاله إلى الشاطئ بعد طولِ إبحار.

وتَـوَّج هـذا الوصـول بأنَّـه اتخـذَ شـعاراً لمجموعتـه يحكي قصة ذلـك النجـاح الطويـل، بعد ذلـك السـعي الحثيث، وهـو **(نعمل بجهد لنظـل فـي المقدّمة)**.

نعم!!

لقد واجه في رحلتِه هذه كثيراً من المخاطر.

وكاد مركبُه يغرقُ في كثيرٍ من المرَّات.

وكادتِ العواصفُ تقتلعُه في كثيرٍ من الأحيان.

لكنَّ صبرَ الربَّان، والعزيمةَ والإيمان، أوصلت المركب إلى شاطئ الأمان.

فالرياحُ قدرٌ من الله تعالى، لكنَّ توجيه الشَّراع من عمل العبد؛ لكي تصل سفينتُه إلى مبتغاها.

فيا مَن ظنَّ أنّ القطارَ قد فاتَه، أو أنَّ الحربَ قد أرجعتْه إلى نقطة البداية في حياتِه، فجلس يلطِمُ خدَّيه ويتحسَّرُ على ما فات!!

ويا مَن كان في بيته آمناً مطمئنّاً يُغدى عليه ويُراحُ بما يشتهي، ولا يُرَدُّ له طلبٌ أبداً، ثمَّ وجدَ نفسَه بينَ ليلةٍ وضحاها يعيشُ في مخيماتٍ تفتقرُ إلى أبسطِ مقوِّماتِ الحياة!!

أو صار نازحاً في ديارٍ ليس لسانُه بلسانها ولا أهلُه بأهلها.

أو كان يعملُ في بلده عملاً يدرُّ عليه من الأرباح ما يكفيه ويَفيض عن حاجته، ثمَّ وجدَ نفسَه بلا عمل ولا مال!!

أو كان في بلده آمراً ناهياً، فردَّه الدَّهرُ في بلاد الغربة منهيّاً ومأموراً!!!

إنَّ الحياةَ لم تصفُ لمخلوقٍ قطّ، ولا أسلسَتْ قِيادَها لأحدٍ من بني آدم.

طُبِعتْ على كدَرٍ وأنت تريدُها ... صفواً من الأقذاءِ والأكدارِ

ومكلِّفُ الأيامِ ضدَّ طِباعِها ... متطلِّبٌ في الماءِ جَذوةَ نارِ

وإذا رجوتَ المستحيلَ فإنَّما ... تَبني الرَّجاءَ على شفيرِ هارِ[1]

فلا تيأسْ ولا تَقنطْ، وقمْ من جديدٍ، وابحثْ عن حلٍّ يُخرجُك ممّا أنت فيه من ضِيق.

---

(١) لأبي الحسنِ عَلِيّ بن محمدٍ التّهَاميّ من قصيدة يرثي فيها ولدَه.

فالفرصةَ ما تزالُ ماثلةً أمام عينيك، ولكنَّها تحتاجُ إلى بذلِ الجهد، والسَّعيِ الحثيث.

والقطار ما يزال على السكَّة، رغمَ أنَّه ابتعد عنك.

فلا تقلْ ما باليد حِيلة؛ فالحيلةُ موجودةٌ ولو لم تكن في يدك، فاسعَ للبحث عنها، وإن لم تجدْها في المرةِ الأولى فلا تتركِ البحثَ وتقعد متحسِّراً، فيكفيكَ شرفاً أنَّكَ حاولتَ وجرَّبت.

فالعلمُ لا يُحصَّلُ إلا بالتعب...

والمالُ لا يُجمَع إلا بالنَّصب...

والفجرُ لا يُشرقُ إلا بعدَ ظلامِ الليل الطَّويل....

والباب لا يُفتحُ إلا بعد إدمان القرع.

فحاول مجدَّداً، وأدمنْ قَرعَ الباب، فلا بدَّ أن يُفتَح لك في يومٍ ما.

إنَّ الأمورَ إذا اشتدَّتْ مسالكُـها ... فالصَّبرُ يَفتحُ منها كلَّ ما ارتَتجا

لا تيأسَنَّ وإن طالتْ مـطـالـبـةٌ ... إذا استعنْتَ بصبرٍ أن تَرى فَرَجا

لا يمنَعنَّكَ يأسٌ مِن مـطـالـبةٍ ... فضيِّقُ السُّبْلِ يوماً ربَّما انتهجا

أخلِقْ بذي الصَّبرِ أن يَحظى بحاجتِه ... ومُدمنِ القرعِ للأبواب أن يلِجا[1]

(١) للشاعر العبَّاسي محمّد بن يسير.

الشاب الذي كان
عمر بن الخطاب رضي الله عنه
يقدِّمه على الشيوخ

عبد الله بن عبَّاس

(واعَجَباً لكَ يا بنَ عَبَّاسٍ! أتَرى النَّاسَ يفْتَقِرون إليكَ، وفي النَّاسِ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ مَنْ ترى؟!)[1]

نزلتْ هذه الكلماتُ كطرقِ المعاولِ على رأس عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، من ذاك الرجلِ الأنصاري، حين عرضَ عليه ابنُ عباسٍ فكرةَ جمعِ حديثِ رسول الله ﷺ بعدَ وفاتِه، من أصحابِه رضوان الله عليهم.

فصارت الأفكارُ تتصارعُ في رأسه كما تتصارعُ الخيولُ في حلْبةِ[2] السباق، كلُّ فكرةٍ تطرقُ جانباً من جوانبِ رأسه، حتَّى لَيكادُ رأسُه ينفجرُ من شدَّةِ اصطراع تلك الأفكار.

يا تُرى؟!!

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي، ج٤/ ص: ٣٨٦.

(٢) حلْبة السباق، بسكون اللام، أمَّا بفتح اللام فهي جمعُ حالب.

وكذلك كلمة (حلْقة) بسكون اللام؛ لأنَّ (حلَقة) هي جمعُ حالق.

لعلَّ هذا الرجلَ قد نطقَ بالحقِّ في كلامه.

أيَحتـاجُ النَّـاسُ إلـى مثلـي، وفيهـم مَـن فيهـم كأبـي بكـرٍ وعمـرَ وعثمـانَ وعلـي؟!

أيمكـنُ أن أحجـزَ لـي مقعـداً بين هـؤلاءِ العمالقـةِ وأنا ابـنُ ثلاثةَ عشَـر عاماً؟!

أيترُكُ النَّاسُ تلكَ البحارَ العظيمةَ ويقصدونَ ساقيةً صغيرة؟!

أيرغبونَ عن تلك الجبالِ الراسية، ويقصدون تلَّةً صغيرةً بالكادِ تُواري مَن يختبِئُ خلفَها؟!

أيمكنُ أن يقومَ لي بناءٌ بين تلك الأبنيةَ العالية؟!

ولكنْ لا!!

حاولْ جسيماتِ الأمورِ ولا تقلْ إنَّ الـمـحـامـدَ والـعُـلا أرزاقُ

وارغب بنفسِكَ أن تكونَ مقصِّراً عـن غايـةٍ فيهـا الطِّلابُ سِـبَاقُ

فيجبُ أن أبذُلَ أقصى ما أستطيعُ لتحصيل العلم، وأُرخصَ الغاليَ والنفيسَ، وأدعَ شيئاً من راحتي ومنامي لتحصيل هذا الأمر.

نعم!!!

إنَّ رسول الله ﷺ قد مات، ولحِق بالرفيقِ الأعلى، لكنَّ علمَه لم

يمتْ، فها هم أصحابُه رضوانُ الله عليهم قد حفظوا في صدورِهم كلَّ ما سمعوه منه ﷺ.

صحيحٌ أنَّني لم أُمتَّعْ كثيراً بصحبتِه ﷺ، فما أزالُ في الثالثةَ عشرةَ من العمر.

ولم أشهدْ معه المغازيَ كما شهدها أولئك، ولا كان لي شرفُ الجهادِ معه ﷺ.

لكنْ إذا فاتَ المحبَّ لقاءُ مَنْ يهوى تعلَّلَ باستماعِ حديثِه[1]

فسأسعى لأحصِّلَ حديثَه ﷺ من صدورِ أصحابِه، الذين عايشوا حياةَ حبيبِهم، ولن أباليَ بكلامِ أخي الأنصاري هذا، وسأعملُ بقولِ عمرَ بن الخطابِ رضي الله عنه: **(لا تَصغُرَنَّ همَّتُك؛ فإنِّي لم أرَ أقعدَ بالرجل من سقوطِ همَّتِه.)**

وصار ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، ابنُ الثلاثةَ عشَرَ عاماً يطوفُ على أصحاب رسول الله ﷺ؛ ليسمعَ منهم ما فاته سماعُه من كلامِه ﷺ.

وكان ربَّما وصل أحياناً إلى بيت ذاك الذي يريدُ سؤالَه وقتَ القيلولة، فكان يستحيي أن يقرعَ عليه البابَ في وقتِ راحتِه، ويعِزُّ عليه أن يعودَ إلى بيتِه دونَ أن يستفيدَ علماً من ذاك الرّجل.

---

(١) لجلال الدين أبي عبد الله المعروف بابن خطيب داريَّا.

فكان يتوسَّدُ عتبةَ بابِه وينامُ بانتظارِ خروجِه من منزلِه.

فكانت رياحُ الظّهيرةِ الحارَّةُ تهبُّ عليه فتجعلُه على مثل الجمرِ، وتحملُ معَها الأتربةَ والرِّمالَ التي تملأُ عينيه وأنفَه وأذنيه وشعرَه.

فكان يحتملُ ذلك في سبيل تحصيل العلم؛ فقد عرفَ قيمةَ ما يطلب فهان عليه ما يبذُل.

ولكأنَّه كان المعنيَّ بقول ابن الوردي:

اطلبِ العِلمَ ولا تَكسَلْ فَمَا ... أَبعَدَ الخَيرَ عَلى أهلِ الكَسَلْ

واحتَفِلْ للفقهِ في الدِّينِ وَلا ... تَشْتَغِلْ عَنهُ بِمالٍ وخَوَلْ

وَاهْجُرِ النَّومَ وَحصِّلهُ فمَنْ ... يَعرفِ المَطلُوبَ يَحقِرْ ما بَذَلْ

لاَ تَقلْ قَدْ ذَهَبتْ أربابُهُ ... كُلُّ مَنْ سارَ عَلى الدَّربِ وَصَلْ

في ازدِيادِ العِلمِ إِرغامُ العِدا ... وَجمَالُ الْعِلمِ إِصلاَحُ الْعَمَلْ

وظلَّ عبدُ الله بنُ عبَّاسٍ رضي الله عنه على هذه الحال سنينَ متطاولةً، لا يشبعُ من العلم، ولا يكتفي من علمٍ واحد.

كان يطوفُ على أصحاب رسول الله ﷺ فيسألهم عن القرآن، وأسباب النُّزول، والمشاهدِ والغزَوات التي غزَوها مع رسول الله ﷺ، وعن الحديث، والفقه، وعن أيام العرب وأشعارِهم، حتى اجتمعَ في صدرِه رضي الله عنه ما تفرَّق في صدور غيرِه من علوم،

وحتَى استقرَّ عندَه ما عزَبَ عن غيرِه من معارف، وصار يُعرَفُ فيما بعد بحَبْر الأمَّة.

ولم ينلْ رضي الله عنه هذا اللقبَ لقرابتِه من رسول الله ﷺ، ولا لوجودِه بينَ هذا العددِ الكبيرِ من أصحابِ النبيِّ ﷺ.

ولكنْ لأنَّه أيقظَ عزمَه حين نامتْ عزائمُ غيرِه، واستنهَضَ همَّتَه حين قعدَتْ هممُ سواه.

وما زال دائباً على طلبِ العلمِ حتَّى صارَ محتاجاً إليه في علومٍ جمَّةٍ، لا في حديثِه ﷺ فحسب.

فقد كان رضي الله عنه يجلِسُ يوماً للتَّفسير فيدخلُ عليه طلَّابُ هذا العلم ليسألوه عن كلِّ شاردةٍ وواردةٍ تعترضُهم.

ثمَّ يجلسُ يوماً للحديث فيُفيضُ فيه من كلِّ جانب.

ثمَّ يجلسُ يوماً للفقه فكأنَّه مِن علمِه به لا يَعرفُ علماً سواه.

ثمّ يجلسُ للعربيةِ وأيامِ العربِ فكأنَّه يقرأُ من صحيفةٍ أمامَه.

وحين رأى ذاك الأنصاريُّ بعدَ سنين متطاولةٍ ما صار إليه عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ، وكيف صار الطلابُ يجتمعون حولَه قال: **(كان هذا الفتى أعقل مني)**[1].

---

(١) من كلام الأنصاري رضي الله عنه.

نعم والله!!!

فليس هناك أعقلُ ممَّن عرف قيمةَ العلمِ فسعى له سعيَه.

ولا أكيَسُ[1] من صاحبِ همَّةٍ عاليةٍ بلغ بها ما عجز عنه غيرُه من المتكاسلين، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

فيا مَن ظنَّ أنَّ القطارَ قد فات!

هل هناك مصيبةٌ أعظمُ من مصيبة فَقْدِ النبيِّ ﷺ؟!!

وهل هناك بلاءٌ أشدُّ من انقطاعِ الوحيِ وانغلاقِ بابِ الحكمةِ والعلمِ والحِلم بعدَ لَحاقِه ﷺ بالرَّفيق الأعلى؟!!

وقد أُصيبَ سيدُنا عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رضي الله عنه كما أُصيب غيرُه من الصحابةِ بتلك الصَّدمة.

وذاقوا مرارةَ الفقْدِ ولذعَ الفراقِ لتلك النعمِ الجليلة.

ولكنْ هل جلسوا يلطِمونَ ويتحسَّرون دونَ أن يصنعوا شيئاً؟!

لقد علَّمهم ﷺ أنَّه إذا قامت القيامة وفي يد أحدِهم فَسِيلةٌ فإن استطاعَ ألا يقومَ حتَّى يغرسَها فليفعلْ.

---

(١) الكيِّسُ هو العاقل، ومنه حديث النبيِّ ﷺ: «المؤمنُ كيِّسٌ فطن». قال الشاعر:

فكن أَكْيَسَ الكَيْسَى إذا ما لقيتَهُمْ وكنْ جاهلاً إمّا لقيتَ ذوي الجهل

فيا تُرى!!!

مَن الذي سينتفعُ بتلك الفَسِيلة (الشَّتْلةِ)؟!!

وكم من السنين ستستغرقُ هذه الشّتلةُ حتى تكبرَ، ثمَّ تُثمر؟!

قطعاً لن يستفيدَ من تلك الشّتلةِ أحدٌ؛ لأنَّ القيامةَ قد قامت، وسيُقضى بعدَها بينَ الخلائق، ويرحلونَ من دارٍ إلى دار.

لكنَّه ﷺ أراد أن يزرعَ في النُّفوسِ حبَّ العمل، وهمَّةَ النُّهوضِ وروحَ التَّفاؤل، حتَّى في أحلكِ الأوقاتِ شدَّةً وقسوة.

وقد فهم عبدُ الله بنُ عبَّاسٍ رضي الله عنه ذلك.

نعم!!!

إنَّ من ينظرُ إليه في ذاك الزَّمنِ يظنُّ أنَّ القطارَ قد فاتَه؛ فقد تُوفيَ ﷺ قبلَ أن يغرفَ منه ابنُ عبَّاسٍ كثيراً كما غرف غيرُه من الصحابة رضوانُ الله عليهم.

لكنَّه أدركَ أنَّ القطارَ لم يفُتْ، ولكنَّه يحتاجُ إلى بذلِ جهودٍ كبيرةٍ ليلحقَ به.

وفعلاً فقد لحق عبد الله بنُ عبَّاسٍ رضي الله عنه بالقطار بعدَ أن بذل جهداً عظيماً، بل لقد صار من قُوَّاده.

فقد دارتِ الأيامُ واحتاج النَّاسُ إلى علمِه، وكأنِّي بذاكَ الأنصاريِّ، ينظرُ إلى ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما وحولَه طلّابُ العلمِ من كلِّ حدبٍ وصوب، وهو يتحسَّرُ ويتقطَّعُ فؤادُه ندماً ويقول: (كان هذا الفتى أعقل مني)[1].

فيا مَن ظنَّ أنَّ القطارَ قد فات، وجلَسَ ينظرُ إليه من بعيدٍ متحسَّراً على فَواتِه!!

ثمَّ راح يلطِمُ خدَّيهِ ويدعو بالويلِ والثُّبورِ على أهلِ زمنِه الذين لم يمدُّوا له يدَ العون، أو صاروا يشمَتون بسقوطِه.

إنَّ الطَّريقَ أمامَك، وليس عليه حاجزٌ أو رقيب، فها هو يقولُ لك: (هيتَ لك)، فاسلُكْني.

فهذا الطَّريقُ الطويلُ سيبقى طويلاً طالما أنَّكَ لم تضعْ قدمَك عليه.

لكنَّه سينقُصُ خطوةً عندما تضعُ أولَ قدمٍ عليه، وكلَّما مشيتَ خطوةً فهذا يعني أنَّ طريقَكَ قد نقصَ خطوة.

فبادِرْ إليه اليومَ قبلَ غدٍ، ولا تؤجِّل المسيرَ؛ فلعلَّك غداً لا تستطيعُ المسيرَ كما تستطيعُه اليوم.

ولا تُرجِ فعلَ الصالحاتِ إلى غدٍ لعلَّ غداً يأتي وأنتَ فقيدُ

(١) من كلام الأنصاري رضي الله عنه.

بعد التشرُّد والضياع

إمامٌ من أئمة السُّنَّة وعلَمٌ من الأعلام

في بلاد الإسلام

الإمام القَعنبي

رحمه اللّه تعالى

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

تُرى!!

هل كانت هذه الآية تخطر في بال عبدِ الله بنِ مسلمٍ بن قَعْنَب في ذاك اليوم الذي كان يشرب فيه الخمر على قارعة الطَّريق؟!!

وهل كان يقعُ في خلَده في ذاك اليوم أن يُقلعَ عمَّا هو مقيمٌ عليه منذُ وقت طويل؟!!

وهل كان يظنُّ أنَّه سيصبحُ في يومٍ ما شخصاً آخرَ غيرَ هذا الشخص السِّكّير الخِمِّير، الذي لا يكادُ يَحولُ عن عادة شربِ الخمرِ في كل ليلة؟!!

لقد بلغتْ به منزلةُ الاستخفاف بالنَّاس أن صار يسكر على ملأٍ منهم، لا يبالي جاراً ولا عالماً ولا وجَيهاً ولا كبيراً من كبراء البصرة.

وكانت البصرة في ذاك الوقت تعجُّ بالعلماء والفقهاء والأدباء والزُّهاد.

وكان إلى جانب هؤلاء أيضاً المُجَّان وقُصَّاد اللهو، الذين يبحثون عن اللذةِ ويتتبَّعونها كما يتتبَّعُ الراعي مساقطَ الغيث ومنابتَ الكَلأِ؛ ليرعى فيها أغنامَه.

لكنَّ هؤلاء المُجَّانَ كانوا يخجلون من إظهار مجونِهم، بل يستترون به عن أعين النَّاس حفاظاً على ماء وجوهِهم أمام الآخرين.

فهم رغم تقصيرهم كما وصف الشاعر أبو تمّام:

يَعيش المرءُ ما استحيَا بخَيرٍ ... ويبقى العودُ ما بقيَ اللحاءُ
فلا واللهِ ما في العيشِ خيرٌ ... ولا الدُّنيا إذا ذَهبَ الحَياءُ
إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالي ... ولَمْ تستَحْيِ فافعَلْ ما تَشاءُ

لكنَّ عبدَ الله بنَ مسلمٍ (القَعنبيَّ) كان قد وصل إلى مرحلةٍ لا يبالي فيها أحداً، ولا يستترُ من أحد.

فكأنَّ لسانَ حالِه ما قاله الشاعر أبو نُوَاس:

ألا فاسقني خمراً وقلْ لي هي الخمرُ ... ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ
وبُحْ باسمِ مَن أهوى ودَعْني من الكُنى ... فلا خيرَ في اللَّذّاتِ مِنْ دونِها سِترُ
فما العيشُ إلا سكْرةٌ بعد سكرةٍ ... فإن طال هذا عندَه قصُرَ العمرُ

وما الغَبْنُ إلا أن ترانيَ صاحياً وما الغُنْمُ إلا أن يُتعْتِعَني[1] السُّكْرُ

وصارتْ حياةُ القعنبي مسلسلاً متتابعَ الحلَقات من جلَسات السُّكر مع مجموعةٍ من أصحابٍ حالُهم كحالِه من التهتُّكِ واللامبالاة.

وكان عبدُ الله بنُ مسلمٍ القعنبيُّ جالساً ذات يومٍ على قارعة الطَّريق، يشربُ من زجاجة خمرٍ بيده، يريدُ أن ينسى بصحبتها هذه الدُّنيا بانتظار مجيء أصحابه في الليل؛ لكي يسهر معهم كما يسهر كلَّ ليلة.

وفي أثناء جلوسِه مرَّ رجلٌ على حمار وحولَه جَمٌّ غفيرٌ من الرِّجال والشُّبانِ بهيئةٍ لم يعهدْها القَعنبيُّ من الهدوء والوَقار.

يا عجباً!!!

من هذا الرَّجل؟!

ومن هؤلاءِ الذين يمشونَ حولَه؟!

إنِّي لأظنُّه قائداً من قُوَّادِ الخليفة أو أحدَ أعوانِه، وهذا الحشدُ هم جنودُه وغِلمانُه.

---

(١) التعتعة في الكلام: هي التردُّد فيه من العِيِّ.

وفلانٌ يتعتِع في الكلام؛ أي: يكرِّر الكلمة أكثر من مرة، ويتردَّد في نطقها.

ومنه حديث النبي ﷺ الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنه: (الماهر بالقرآن مع السَّفَرةِ الكرامِ البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتعُ فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران).

وتعتعَه السُّكرُ؛ أي وصل إلى حالة من السكر لا يستطيعُ معها الكلام بطريقة صحيحة.

ولكنْ ما لي لا أرى أحداً منهم يحملُ على عاتقِه سلاحاً؟!!

لم أرَ في حياتي جنوداً أضعفَ عقلاً ولا أخيبَ رأياً من هؤلاء.

ولعلَّهم ليسوا جنوداً.

لكنْ ما هؤلاء؟!

هل هم طلابُ حاجاتٍ وهذا الرَّجلُ يقضي لهم حوائجَهم، ويوزّعُ عليهم الدَّنانير والدَّراهم؟!

ولكنْ لا يظهرُ عليه أنَّه من أصحاب الأموال؛ فآثارُ العَوَز تظهرِ عليه وعلى مَن حولَه.

وما هذا الاحترام الذي يُبديه هؤلاء الأشخاص لهذا الرَّجل؟!!

إنَّ أمرَهم لعجيب!!

وصار القَعنبيُّ يقلِّبُ وجوهَ الرَّأيِ في نفسِه، فقد وقع في حيرةٍ أيقظَتْه من سكرتِه، وأبركتْه على مثل الجمر من تشتُّت التفكير.

فلم يستطعْ صبراً على الجلوس، وقام بنفسه ليستجليَ أمرَ هذا الرَّجل، ويعرفَ حقيقةَ هؤلاء الذين يتبعونَه كما تَتبعُ النُّوقَ فِصالُها[1].

---

(١) الفِصال: جمع فصيل، وهو المفصول عن الرضاع من أولاد النوق، والأنثى منه فَصِيلةٌ.

وكان هـذا الرَّجـلُ الرَّاكـبُ علـى الحمار هو شـعبةَ بـن الحجَّاج، محـدِّثَ البصـرةِ، الـذي كان إضافـةً إلـى علمِـه بالحديـث والرِّجـال رأسـاً فـي العربية والشِّـعر.

وكان أوَّلَ مَن فتَّشَ في العراق عن أمر المحدِّثين، وجانب الضعفاء والمتروكين، وتبعه بعده عليه أهلُ العراق؛ ولذلك قال عنه الإمام الشافعي: **لولا شعبةُ ما عُرِفَ الحديثُ بالعراق.**

وهـؤلاء الذيـن حولَـه هم تلاميـذُه الذيـن جـاؤوا مِـن كلِّ حدَبٍ وصـوبٍ ليَغنموا شـيئاً من علم الحديـث والعربية والشـعر الذي عندَه.

فقـد كان شـعبةُ بـنُ الحجَّـاج أشـهرَ من نـارٍ علـى عَلَـم[1]، يعرفه القاصـي والدَّانـي فـي البصرة، بـل يعرفُه طـلابُ العلمِ في بقـاعِ العالم الإسـلامي؛ فإنَّهـم يأتـون إلـى البصرة مـن شـتّى الأمصـار، ويضربون آبـاط الإبـل ليُلقـوا عليه الأسـئلةَ التـي تعترضُهـم في العلـوم، وخاصةً فـي علـم الحديث.

لكنَّ القَعنبيَّ لم يكن يعرف شعبة.

---

(١) هذا مثلٌ عند العرب، يُقال: (فلانٌ أشهر من نار على علم)، والعَلَم هو الجبل، فالنار المشتعلة فوق الجبل يراها القاصي والدَّاني.

قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وإن صخـراً لتَأْتَـمُّ الهُـداةُ بِهِ كأنَّـه عَلَـمٌ فـي رأسِـه نـارُ

ومن أين له بأن يعرفَه وهو لم يسمع بشيء من العلم الذي اجتمع لأجله هؤلاء الطلبة حول شعبة؟!

ولذلك فقد ذهب ليستجليَ بنفسِه شأن هذا الرَّجل الذي أثارَ أمرُه فضولَه واستغرابَه.

وشاهد هؤلاء الطلبةُ القعنبيَّ مقبلاً نحو شيخِهم شعبة، ففسحوا له مجالاً حتّى وصل إليه.

فقال له: مَن أنتَ؟

- قال: شعبة.

- قال: ومَن شعبة؟!

- قال: شعبةُ بن الحجَّاج.

- قال: وما أنت؟!

- قال: محدِّث.

- قال: وما محدِّث؟!

- قال: أروي الحديثَ عن رسول الله ﷺ.

-فقال له القعنبيُّ: حدِّثْني.

فوجم شعبةُ وسط استغراب طلابِه ولم ينبِس ببنت شفة.

فعاود القعنبيُّ طلبَه: حدِّثْني.

فقال له شعبة: ما أنتَ مِن أصحاب الحديث فأحدِّثَك!

فشَهَر القعْنبيُّ سِكّينَه[1] في وجه شعبة وقال له مهدِّداً: حدِّثْني أو أجرحَك بها!!!

فقال له شعبة: حدَّثَنا منصورٌ عن رِبْعيٍّ عن أبي مسعُودٍ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولى إذا لمْ تَسْتَحِ فاصنَعْ ما شِئْتَ»

فاضطرب القعنبيُّ وسُقِطَ في يده[2]، وعلم أنَّ شعبةَ قد قصدَه هو بإيراد هذا الحديث عن رسول الله ﷺ.

يا تُرى!!!

أأنا المقصود بهذا الحديث؟!

أيُعقَلُ أن يقول رسول الله ﷺ كلاماً عن حالتي، وأنا لا أعلمُ به؟!

لا بل إنَّ هذا الكلام قاله الأنبياءُ الأُوَلُ.

---

(١) شَهَر سيفَه وسكِّينَه يَشهرها؛ أي: أخرجَه من غمده.

ويخطئ الكثيرون في هذا الفعل فيقولون: (أشهرَ سيفه)، وهذا خطأٌ شائع؛ لأنَّ (أشهَر) تعني: دخل في الشهر.

كما يقال: (أحرم)؛ أي: دخل في الشهر الحرام، و(أحلَّ)؛ أي: دخل في الشهر الحلال.

(٢) سُقِطَ في يدِه؛ أي: ندم وتحيَّر. ومنه قوله تعالى: (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِم).

أأنا لا أستحي؟!!

أوَقد بلغَ بي الانحطاطُ إلى هذه الدرجة وأنا غافل؟!!

ثمَّ شهقَ القعنبيُّ شهقةً، وأطلقَ أنفاساً حارَّةً لو تنفَّسها على الحديد إذاً لذاب من شدة حرارة هذه الأنفاس.

ثمَّ صار يبكي بكاءً شديداً، وكأنَّ الدَّمعَ كان محتبساً في عينيه منذ زمنٍ طويلٍ؛ فقد أُغلِق بابُ البكاءِ دون عينيه، وخُتِمَ على قفلِه بالشمع الأحمر؛ لأنَّه لم يسمع كلاماً يذكِّرُه بحالتِه منذ زمن طويل، فها هو الدَّمعُ يسِحُّ من عينيه كسيلٍ جارفٍ لا يكاد يتوقّف.

ثمَّ رجعَ إلى البيت فكسر جِرار الخمر التي كان يختزنُها من أجل سهَراتِه مع رفاق السُّوء الذين يسكرون معه دائماً.

ثمَّ أقفل على نفسه باب غرفتِه بعد أن طلب من أمِّه أن تُطعمَ أصحابَه إذا جاؤوا، ثمَّ تخبرهم بما فعله ولدُها وتطلب منهم الرَّحيل؛ لأنَّه لا سبيلَ إلى شرب الخمر مجدَّداً مع ولدِها القعنبي؛ فقد أقلعَ عمَّا كان فيه.

وتاب القعنبيُّ توبةً نصوحاً.

يا رب!!

قد مسَّني الضرُّ وأنت أرحمُ الرَّاحمين.

يا الله!!

أَنخْتُ مطيّتي ببابك، فلا تطردْني عن جنابِك.

ها قد رجعتُ إليك، ورفعتُ يديَّ فلا تردَّهما صفراً خائبتَين.

يا غافر الذَّنب اغفر لي ما مضى من تقصيري في جنبك يا غفَّار!

يا ربّ إن عظُمَتْ ذنوبيَ كَثرةً ... فلقد علمْتُ بأنَّ عفوَكَ أعظمُ

أدعوكَ ربِّ كما أمرتَ تضرُّعاً ... فلئِنْ رددْتَ يديْ فمَنْ ذا يَرحَمُ

إن كان لا يرجوكَ إلا محسنٌ ... فبِمنْ يلوذُ ويَستجيرُ المجرمُ

ما لي إليكَ وسيلةٌ إلا الرَّجا ... وجميلُ عفوِكَ ثمَّ إنّيَ مسلمُ[1]

اللهمَّ أنت ربي لا إله إلا أنتَ خلقتني، وأنا عبدُك، وأنا على عهدكَ ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنَّه لا يغفر الذُّنوبَ إلا أنت[2].

ثمَّ سأل القعنبيُّ عمَّن يطلبُ العلم على يديه؛ ليعتاض عن أيام التهتُّك التي قضاها في معاقرة المعاصي.

---

(١) العجيب أنَّ صاحب هذه الأبيات هو أبو نُواس، نفسُه صاحبُ الأبيات الخمرية التي أوردتُها في بداية القصة.

فلا يقنطنَّ عاصٍ من رحمة الله؛ فبابُه مفتوحٌ لكلِّ تائب.

(٢) هذا الدُّعاء هو سيِّد الاستغفار كما علَّمنا النبيُّ ﷺ.

لقد أراد أن يفعل الحسنات؛ ليمحوَ اللهُ بها عنه السيئات.

أراد أن يفتحَ باب الخير، بعد أن أغلقَ بابَ الشّر.

أراد أن يعلـوَ فـي سـماء الفضيلـة، بعـد أن كان غارقاً في مسـتنقع الرذيلة.

فدُلَّ على الإمام مالكٍ في المدينة، فشدَّ رحالَه وانطلق إلى هناك؛ لينسى ما كان منه هنا.

ورحل عن الأرض التي شهدتْ معصيتَه؛ إلى أرض أخرى لعلَّها تشهدُ على طاعاته.

ولازمَ الإمامَ مالكاً سنينَ طويلةً، ينهل من علمه وخلقه.

وكلَّما كلَّتْ نفسُه قليلاً في الدراسة ذكَّرها بالأيام التي قضاها في اللهو والضياع وقال لها:

يا نفسُ ما لَكِ؟!!

أما تذكرينَ ما كنتِ فيه من ضياعٍ وشرودٍ؟!

ألا تحمدين الله تعالى على ما أنتِ فيه من نعيم الهداية اليوم؟!

أتكونين في قمة النَّشاط وأنتِ تعصين، ثمَّ يُدركِكِ الكللُ والكسلُ وأنتِ تطيعين؟!!

يـا نفـسُ مـا هـي إلا صبـرُ أيامِ كأنَّ مدَّتَهـا أضغـاثُ أحـلامِ

يا نفس!!

اصبري على التَّعب والجوع؛ فإنَّ وراءَهما راحةً لا تعبَ بعدَها.

فابذُلي قليلاً زائلاً من أجل كثيرٍ باقٍ.

احتملي تعباً سيزول، من أجل نعيم سيطول.

احتملي ألماً سيَمضي، من أجل أملٍ سيُرضي.

ومرَّت الأيام...

فـإذا بالقعنبيُّ يصيـرُ من أفضلِ طـلابِ الإمام مالـك، وأثبتِ رواةِ الموطَّأ عنه.

فقـد أجمـع العلماء والـرواة على جلالتـه وإتقانِه وحفظِـه وورعِه وزهدِه.

قال عنه أبو زُرعة: ما كتبت عن أحد أجلَّ في عينيّ من القعنبي.

وصار يسمى: الرَّاهب؛ لعبادته وفضله.

وذات يومٍ تذكَّر القعنبيُّ ذاك الموقف الذي حدَّثه فيه شعبةُ بن الحجّاج ذلك الحديث: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولى إذا لَمْ تَسْتَحِ فاصنَعْ ما شِئْتَ».

فقد صارَ القعنبيُّ يعرف لشعبةَ بن الحجاج فضلَه وعلمَه الآن، ومكانتَه بين رواة الحديث، وآراءَه في الجرح والتَّعديل.

وكان قد اكتسب من الإمام مالك أشياءَ كثيرةً غير العلم من أدبٍ وهدْيٍ وسمتٍ ووقارٍ لم يكنْ يعرف عنها في البصرة شيئاً فضلاً عن أن يطبِّقها خُلقاً في حياته.

ووقتَها قرَّر العودةَ إلى البصرة للاستزادة من علم شعبةَ بن الحجَّاج، ولرواية أحاديثَ أخرى عنه غيرِ هذا الحديث الذي سمعه منه في ذاك اليوم.

وعاد القعنبيُّ إلى البصرة، يحدوه الشَّوق، ويسوقه الحبُّ، ويمشي على قلبه بدل رجليه.

أمشـــي بقلبـي لا برجلـي إنَّــه   تمشي بحسب هوى القلوبِ الأرجلُ

وكلَّما اقترب من البصرةِ أكثر خفق قلبُه واضطربت جوارحُه.

وأكثـرُ مـا يكـون الشـوقُ يوماً   إذا دنــتِ الخِيــام مــن الخِيــام

وحين وصل إلى البصرة كان طائرُ الشوقِ قد حطَّ فسكنت الجوارحُ وهدَأ القلب.

ولكــنَّ زائـر المـوت الـذي لا يسـتأذنُ أحـداً كان قـد زار شـعبةَ بن الحجّـاج، الـذي كان لـه الفضل في إيصـال القعنبيّ إلى شـاطئ الهداية.

فلم يحظَ القعنبيُّ بلقائه مرةً ثانية، ولذلك فإذا بحثْنا في الأحاديث التي رواها تلاميذُ القعنبيّ عنه كالبخاري ومسلم وأبي داود فلن نجد له عن شعبةَ بن الحجّاج إلا حديثاً واحداً وهو حديث: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولى إذا لمْ تَسْتَحِ فاصنَعْ ما شِئْتَ».

فسبحان مغيّر الأحوال، ومصرِّف القلوب كيف يشاء!!!

ما بينَ طرفةِ عينٍ وانتباهتِها يغيِّرُ اللهُ من حالٍ إلى حال

تُرى!!!

هل كان شعبةُ بن الحجّاج يَتوقَّعُ للقَعنبيِّ أن يمشي في طريق الهداية بعد أن وصل إلى تلك الحال التي كان عليها؟!!

هل كان يَدري أنَّه سيلحق بقطار التوبة بعد أن تخلَّف عنه كثيراً؟!!

هل وقع في خلَده أنَّه سيكونُ عالماً من علماء الحديث، بعد أن كان لا يدري ما معنى كلمة (محدِّث)؟!!

هل كان يَتوهَّمُ توهُّماً أن يصبحَ القعنبيُّ إماماً من أئمة السنَّة، ويكون البخاريُّ ومسلمٌ من تلاميذه؟!!

وأنتَ يا مَن أسرفَ على نفسِه، وظنَّ أنَّ قطار التوبةِ قد فات، وفات معه العلمُ والهدايةُ!!

لو فكَّر القعنبيُّ كما تفكِّرُ أنت يومَ سمع من شعبةَ بن الحجّاج قولَه ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولى إذا لمْ تَسْتَحِ فاصنَعْ ما شِئْتَ» لَما وصل إلى ما وصل إليه من علم وفضل وزهد وإمامة.

فالإنسانُ قد تعتريه أوقاتُ ضعفٍ يقصِّرُ فيها السيرَ، فيتأخرُ عن ركب السّائرين.

وقد يفوتُه ذاك الرَّكبُ فيظنُّ أنَّ القطارَ قد فات، وأنَّ اللَّحاقَ به غيرُ مقدورٍ عليه، فتقعُدُ همَّتُه وتنحطُّ عزيمتُه، ويرضى من الغنيمة بالإياب.

بل قد لا يرضى حتّى بالإياب فيُسرفُ على نفسه في المعاصي، حين تسوِّلُ له نفسُه، ويزيِّنُ له الشَّيطانُ ألا يُحدِّثَ نفسَه بالرُّجوع إلى جادّة الصَّواب وتلمُّس طريق النّجاة من جديد؛ لأنَّ ذاك الحديثَ يُثيرُ في نفسه آلاماً يهربُ منها بالسُّكر أحياناً، وباللهو أحياناً أخرى، وبعدم الاستماع إلى مَن يحدِّثُه عن مواضي أيامِه.

فإذا وقعتَ في مثل ما وقع فيه القعنبيُّ فلا أقلَّ من أن تستمعَ إلى مَن يحدِّثُك عن أمل اللَّحاق بالقطار؛ فلعلَّ حديثَه يقعُ في نفسك كما وقع حديثُ شعبةَ في نفس القعنبي.

فتذكَّر ذلك وردِّد بينَك وبين نفسك: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وماذا يبتغي الشعراءُ منِّي
وقد جاوزتُ حدَّ الأربعين

الإمام الكسائي
وطلب النحو بعد الأربعين

(لا تفوحُ رائحةُ الكعكِ الزَّكية حتَّى تمسَّها حرارةُ نارِ الفرن)

وكذلك أحلامُنا وآمالُنا.. لا تنضَجُ حتَّى تمسَّها قسوةُ التجارِب.

هـذا هـو شـأنُ الحيـاة؛ فقطوفُها ليسـت دانيـةً لمـن أراد أن يتناولَ منها شـيئاً، بـل إنَّها كاللؤلـؤِ المكنون، لكنَّـه في صَدف، وهـذا الصدفُ قابـعٌ في قـاع البِحار.

فمن أراد أن ينالَ من هذا اللؤلؤِ شيئاً فلا بدَّ أن يخوضَ غِمارَ هذه البحار، ويصبرَ على أمواجِها العاتية، ويتحمَّلَ ملوحةَ مياهِها.

وقد يبتلعُ شيئاً من تلك المياه المالحة[1].

---

(١) يقال: (ماءٌ مِلْحٌ)، وهي اللغة الأعلى والأفصح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

ولكـنْ ورد في أشـعار العـرب وصف البحـر بـ(مالح)، كقول الشـاعر عمـر بن أبي ربيعة:

فلو تفَلتْ في البحر والبحرُ مالحٌ ... لـعـاد أُجاجُ البحر مِن ريقها عذْباً

وقد تلطِمُه تلك الأمواجُ على وجهه.

وقد ينجحُ في الوصول إلى قاع البحر، ويجدُ ذلك الصدفَ، لكنْ ليس كلُّ ذاك الصدفِ فيه لؤلؤٌ.

فلا بدَّ لمن يريدُ اللؤلؤَ أن يعيدَ الكَرَّةَ كثيراً؛ لأنَّه إذا وجدَ لؤلؤةً واحدةً فسوف تُنسيهِ آلامَ البحثِ وعناءَ خوضِ غِمارِ تلك البحار.

بل إنَّ هذه اللؤلؤةَ ستضيءُ له طريقَ النَّجاحِ، وستَهديه في ظلامِ الفشلِ الذي كان يحيطُ به من قبل؛ لأنَّه مرَّ بتجارِبَ كثيرةٍ من تجارِبِ الفشلِ حتَّى نالَ تلك اللؤلؤةَ، وسيتجنَّبُ تلكَ التجارِبَ في المرَّاتِ القادمة.

وهذا ما حصل مع الإمام علي بن حمزةَ **الكسائي** رحمه الله تعالى.

صاحبِ القراءة المشهورة، وهي إحدى القراءات العشر التي نقرأُ بها إلى اليوم.

والنَّحويِّ العظيم الذي صارَ إمامَ علمِ النحوِ في الكوفة، كما صار سيبويه إمامَ علمِ النحوِ في البصرة.

وكانت له مناظراتٌ علميةٌ مع سيبويه، وغيرِه من رجالات ذاك العصر.

بل إنَّه كان مربياً للخلفاء؛ ربَّى هارونَ الرشيد، وأولادَه من بعدِه.

لكنَّ طريقَه في تعلُّم النَّحو لم يكن مفروشاً بالورود، ولا متعطِّراً برائحة الريحان.

بل لقد لقي فيه الكسائيُّ العنت، ومشى على الأحجار والأشواك، لكنَّه وصل إلى مبتغاه بعد سعيه الحثيث.

والصعوبةُ لم تكن في سلوكِ الكسائي لهذا الطريق، بل في التَّوقيت الذي بدأ به سلوكَ طريقِه.

حيث إنَّ الكسائي رحمه الله تعالى حفظَ القرآنَ صغيراً، لكنَّه لم يكن يعلم من النحوِ إلا النَّزرَ القليل، كحَسْوِ الطَّائر[1].

ولم يكن يُلقي كثيرَ أهميةٍ لهذا الأمر؛ لأنَّه يرى أنَّه مستغنٍ عن ذلك بحفظه للقرآن.

لكنَّ حادثةً وقعتْ له جعلتْه يعيدُ التفكيرَ في تعلُّم النحوِ من جديد.

(وكان سببُ تعلمِه أنه جاء يوماً، وقد مشى حتى أعيا، فجلس إلى الهبَّارين، وهم قومٌ فصحاءُ كان الكسائيُّ يُكثر مجالستَهم، فقال: قد عَيِيتُ.

---

(١) يقال: (كحسو الطير، أو كحسو الدِّيك) وهو مثل يُضرب للدلالة على قلة الشيء أو قِصَره. قال الشاعر:

ونومٍ كحسوِ الطيرِ بِتْنَا نَذوقُهُ ... على شعبِ الأكوارِ فوقَ الأيانقِ

فقالوا له: أتجالسُنا وأنت تَلْحَنُ[1]؟!

فقال: كيف لَحَنْتُ؟!

قالوا له: إن كنتَ أردتَ من التعبِ فقل: أَعييتُ، وإن كنتَ أردتَ من انقطاع الحيلة والتحيرِ في الأمر فقل: عَيِيتُ.

فأنِفَ من هذه الكلمة)[2]

أأنا أَلْحَن؟!!

أيُعقَل أنني أقرأ القرآنَ وأُقرِئُه وأنا ألحن؟!

ألم يستقمْ لساني بعدَ مجالسةِ هؤلاءِ القوم؟!

لقد سقطتُ سَقْطةً أمامَهم أسقَطَتْ منزلتي من عيونِهم، ولكنَّ السَّقْطةَ القادمةَ قد لا أقومُ منها أبداً.

إذاً!!!

فلا بدَّ أن أقومَ من جديد، وأبذلَ ما أستطيعُ لاكتساب النَّحوِ الذي أحتاجُ إليه.

---

(١) لَحَنَ يَلْحَن في كلامه (مِن باب فتَح يَفتَح)؛ أي: خالفَ الإعراب، فرفع المجرور أو نصب المرفوع، أو جرَّ المنصوب... إلخ. قال الشاعر:

النَّحـوُ يُصلـحُ مـن لسـانِ الألكَنِ ... والمـرءُ تُعظِمُـه إذا لـم يَلحَـنِ

فـإذا طلبْـتَ مـن العلـومِ أجلَّها ... فأجلُّهـا منهـا مُقيـمُ الألسـنِ

(٢) من ترجمة الكسائي في تاريخ بغداد.

ولكنْ!!!

لقد بلغتُ الأربعين!!!

أبعْدَ الأربعين أعودُ إلى الدراسة من جديد؟!!

أيستوعبُ عقلي ما سأدرسُه الآن؟!!

أيمكننُي تَدارُكُ ما فات قبلَ فواتِ الأوان؟!!

أيمكنُ أن ألحقَ القطارَ وقد قطعَ أشواطاً طويلةً جداً من رحلتِه؟!!

تُرى إلى أيِّ محطةٍ وصل القطار بعد هذه المدة الطويلة؟!!

أيُّ قوةٍ تلك التي يجبُ أن أبذُلَها كي أعوِّضَ ما فاتني في سنوات الصِّبا والشباب؟!!

وأيُّ جهدٍ عليَّ أن أقدِّمَ لكي أصلَ مع الواصلين؟!!

وأيّ صبرٍ عليَّ أن أتحلَّى به لأكمل الطريقَ بعد أن سبقني فيه السَّالكون؟!

ولكنْ لا!!!

لن أتوانى ولن أتراجع.

فما دام قلبي ينبِضُ في صدري، وما دام دمي يجري في عروقي، وما دمتُ أتنفَّسُ، وما دام في عُمري بقيةٌ فإنِّي أستطيعُ تعويضَ شيءٍ ممَّا فاتني.

و(من طلبَ الراحةَ تركَ الرَّاحة).

فلا بدَّ أن أتركَ ما أنا فيه من راحة الجسد، لأنال راحةَ النفس.

وإذا كانتِ النفوسُ كباراً تعبتْ في مرادِها الأجسامُ[1]

فسأل الكسائيُّ عمَّن يعلِّمُ النحوَ، فأرشدوه إلى معاذ الهراء، فلزمه في دروسِه، ولم يمنعْه كِبَرُ سنِّه من أن يواظبَ على حضورِ دروسِه.

وبقي ملازماً له حتى أنفد ما عنده، وأخذَ عنه كلَّ ما يتوقعُ أن يجدَه عندَه من النحو.

ولم تفتُرْ همَّتُه، ولا بردتْ عزيمتُه، بل قرَّر الانتقال إلى عالِمٍ آخرَ ليستفيدَ من علمه، كما استفاد من علمِ الشيخ معاذ الهراء.

فخرجَ من الكوفة وسافر إلى البصرة فلقيَ فيها الخليل بن أحمدَ الفراهيدي، وجلس فِي حَلْقتِه؛ ليتعلَّم عندَه، ولم يقل لنفسِه: كفاني ما أخذتُه من علّامة الكوفة معاذ الهرَّاء.

فقد كان يريدُ أن يعوِّضَ ما فاتَه في زمنِ الصِّبا من طلب النَّحو، وكان في الوقتِ ذاتِه يرى غيرَه من الشباب وهم يتسابقون إلى القربِ من مجلسِ الخليل بن أحمد رحمَه الله تعالى، ومنهم الشابُّ سيبويه الذي ورثَ علمَ الخليل.

---

(١) للمتنبي.

ورأى رجلٌ من الأعراب الكسائيَّ وحِرصَه على تعلُّمِ النَّحوِ من الخليل، **(فقال له: تركتَ أسَدَ الكوفةِ وتميمَها، وعندها الفصاحة، وجئتَ إلى البصرة)**[1]؟!!

فانتبَه الكسائيُّ إلى هذا الأمر، وكيف غاب عنه فلم يفطَن إليه، وأرادَ أن يشربَ من المنبع الذي شربَ منه الخليل، فقال له: **(من أين أخذت علمك هذا؟**

فقال: من بوادي الحجاز، ونجد، وتهامة)[2].

فخرجَ الكسائيُّ من فورِه إلى البادية، وصار يقطعُ الفيافيَ والمفاوز، يرقى جبالاً، ويهبط أودية، وتكادُ أشعةُ الشمسِ تُذيبُ دماغَه فيتبخَّرَ مع تلك الأشعة الملتهبة.

ويقطعُ العطشُ جوفَه، وهو يسيرُ فوقَ الرِّمال الملتهبة، وتُدمي الأحجارُ والأشواكُ رجلَه.

لكنَّه يجدُ ذلك الألمَ لذيذاً، وذلك العناءَ جميلاً، فقد عرفَ قيمةَ ما يطلب، فهان عليه ما يبذُل.

ألا في سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلُ عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

---

(١) من ترجمة الكسائي في (تاريخ بغداد).

(٢) من ترجمة الكسائي في (تاريخ بغداد).

تُعـدُّ ذنوبي عندَ قــومٍ كـثيــرةً ... ولا ذنبَ لي إلا العُـلا والفضائلُ

يُهِمُّ الليالي بعضُ ما أنا مُـضـمِـرٌ ... ويُثقلُ رَضْوى[1] دونَ ما أنا حامِلُ

وأغـدو ولو أنَّ الصَّباحَ صـوارمٌ ... وأَسْــري ولو أنَّ الظَّلامَ جحافلُ

وإنـي جـوادٌ لـم يُحَـلَّ لِـجـامُـه ... ونَــصلُ يمـانٍ أغفلتْـه الصياقِلُ

وكيـفَ تنامُ الطَّيـرُ في وُكُناتِــها ... وقد نُصِبَـتْ للفَرْقديـنِ الحبائلُ

ينافسُ يوميْ فِيَّ أمسـي تـشـرُّفـاً ... وتَحسُدُ أسحاري عليَّ الأصائلُ[2]

لقد كان من قبلُ رأساً في قراءة القرآن، يجلسُ الطلابُ عندَه لينهلوا من قراءته، لكنَّه اليوم يمشي في هذه الصحارى المترامية، ويجالسُ الأعرابَ ليشافِههم ويكتبَ عنهم اللغةَ، ويحتملُ جَفاءَ الأعرابِ؛ ليظفرَ بفصاحتِهم وذلَقِ لسانِهم.

ولم تكن رحلتُه للاستجمام، ولا للاستمتاعِ بأشعةِ الشمس، بل كانت سلسلةً متواصلةً من العذاب والتَّعبِ والجوع والعطش.

حتى إنَّ لونَه تغيَّر لكثرةِ تعرُّضه لأشعة الشمس، فحين عاد من هذه الرِّحلة أنكره النَّاسُ، ولم يعرفوه لتغيُّر ذاك اللون.

ولكنَّ هذا التعبَ وهذا الجوعَ وهذا العذاب، لا بدَّ لها من نهاية،

---

(١) رضوى: اسم جبل يقع بين مكة والمدينة.

(٢) لأبي العلاء المعرّي.

فمن لا يتعب لا يجد الراحة، ومن لم يذقْ ألمَ الجوع فلن يعرف لذةَ الشِّبَع، ومن لم يصطلِ بنارِ العذاب، فلن يهنَأ بنعيم الهدوء، ومن لم يُبحر في بحر الشقاء فلن ترسو سفينتُه في شاطئ النَّعيم.

ومَن لم يذُقْ مرَّ التَّعـلُّم سـاعـةً تجرَّع ذُلَّ الجهل طول حياتِه[1]

فقـد حفـظَ الكسـائيُّ فـي رحلتِه هـذه أشـياءَ كثيرةً عـن الأعراب، كمـا **(أنفـدَ خمـسَ عشْـرةَ قنّينـةً حِبراً فـي الكتابةِ عـن العربِ سـوى ما حفظ)**[2].

وبعدَ هذه الرِّحلة الطويلة في بوادي العرب، لم يُلقِ الكسائيُّ عصا التَّسيار، ولم يعدْ إلى بيتِه مقتنعاً بما بذلَه من جهدٍ في أسفارِه.

بل لم يكن **(له همٌّ غيرُ البصرةِ والخليل)**[3]، لكنَّه حين وصل إلى البصرة بعد طول فراق، وجدَ الخليلَ رحمَه الله تعالى قد مات، ووجدَ يونسَ النَّحويَّ قد جلسَ مكانَه، فكانا يتناظران ويتدارسانِ بعضَ المسائل.

فوجدَ يونسُ النحويُّ أنَّ الكسائيَّ قد فاقَه فيها؛ لأنَّه قد شاركه في الجلوس على الخليل بن أحمد الفراهيدي، لكنَّه انفردَ عنه بتلك الرِّحلة في بوادي العربِ.

---

(١) للإمام الشافعي.

(٢) من ترجمة الكسائي.

(٣) من ترجمة الكسائي.

فما كان من يونسَ بعد مناقشته في تلك المسائل إلا أن **(أقرَّ له فيها وصدَّره موضعَه)**[1].

واكتسب الكسائيُّ من هذه الرِّحلة أموراً لم يكنْ ليكتسبَها لو بقي في بلده، فقد اجتمعتْ فيه خصال لم تجتمع عند غيره، فقد **(كان أعلمَ النَّاسِ بالنَّحْو، وواحدَهم في الغريب، وكان أوحدَ النَّاسِ في القرآن)**، كما قال أبو بكربن الأنباريّ.

وقال عنه الشَّـافعيُّ رحمـه الله تعالى: **(مَـنْ أرادَ أنْ يتبحَّرَ في النَّحوِ، فهو عِيَالٌ على الكِسـائيِّ.)**

وقد جمعَ رحمه الله مع العلم أدبَ الخطاب، فكان يتخيَّرُ الكلماتِ ويكسو ألفاظَه أحسنَها وألطَفها، ما جعلَ الخلفاء يختارونَه لمجالستِهم وتأديبِ أولادِهم.

(فقد كان عند المهدي مؤدبٌ يؤدِّبُ الرشيد، فدعاه يوماً المهديُّ وهو يستاك، فقال: كيف تأمرُ من السِّواك؟

فقال: استَكْ يا أميرَ المؤمنين.

فقال المهدي: إنا لله وإنا إليهِ راجعون.

ثم قالَ: التمسوا لنا مَن هو أفهمُ من ذا.

---

(١) من ترجمة الكسائي.

فقالـوا: رجـلٌ يقـال له عليُّ بـنُ حمزةَ الكسـائي من أهـل الكوفة، قَـدِمَ من الباديـة قريبا.

فكتـب بإزعاجِـه[1] مـن الكوفـة، فسـاعةَ دخل عليـه قالَ: يـا عليُّ بـن حمزة!

قالَ: لبَّيكَ يا أمير! المؤمنين.

قَالَ: كيف تأمرُ من السِّواك؟

قالَ: سَكْ[2] يا أميرَ المؤمنين.

قالَ: أحسنت وأصبت، وأمر له بعشَرةِ آلافِ درهم) [3].

نعم!!

---

(١) الإزعاجُ: نقيضُ الاستقرار، وأزعجَه من بلدِه: إذا أشخصَه وأخرجَه.
ومنه يُقال: أزعجَه الأمرُ؛ إذا أقلقَه.

(٢) فعلُ الأمر من السِّواك: سَكْ، واستَكْ، كما يُقال من السُّؤال: (سَلْ، واسألْ).
فالجوابُ الذي أجابَ به مربِّي هارون الرَّشيد كان صحيحاً من الناحية اللغوية.
لكنَّ فيه معنًى غير محبَّب؛ فالاست في اللغة هي المؤخّرة، و(استَكْ) قد يلتبسُ فيها معنى الأمر بالسِّواك بمعنًى آخر وهو (الإغراء أو التحذير) من الاست، ولذلك فقد صرفَ المهدي مربيَ ولدِه الرَّشيد حين أجابَه بذاك الجواب، وفرح بجواب الكسائي؛ لأنَّه تخيَّر اللفظَ المحبَّب.

(٣) من ترجمة الكسائي.

لقد سـافرَ الكسـائيُّ كثيراً، وتعبَ في سـفرِه، ونالَه في هذا السـفرِ النَّصـبُ والوَصَـب، ولكنَّـه كان كالسـيف لا تزيـدُه صُـروفُ الدَّهرِ إلا صقـلاً ومَضاءً.

فقد كان الكسائيُّ أمَّةً، لا يقومُ غيرُه بما يقومُ به، اجتمعَ فيه ما تفرَّق في غيرِه من علوم ومعارف.

فقد (روى أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني قال: وَفَدَ علينا عاملٌ من أهل الكوفة، ولم أرَ في عُمَّالِ السلطان أبرعَ منه.

فدخلتُ عليه مسلِّماً فقال لي: يا سجستاني، مَنْ علماؤكم بالبصرة؟

قلـتُ: الزيـادي أعلمُنـا بعلـم الأصمعـي، والمازنـي أعلمُنـا بالنحـو، وهـلالُ الـرأي أفقهُنـا، والشـاذكوني مـن أعلمِنـا بالحديـث، وأنـا ـ رحمـك الله ـ أُنسَـبُ إلـى علـم القـرآن، وابـنُ الكلبي مـن أكتبِنا للشـروط.

قال: فقال لكاتبه: إذا كان غداً فاجمعْهم إليّ.

قال: فجمعَنا، فقال: أيُّكم المازني؟

فقال أبو عثمان: ها أنا ذا.

قال: هل يُجزئُ في كفارة الظِّهار عِتقُ عبدٍ أعور؟

قال المازني: لستُ صاحبَ فقه، أنا صاحبُ عربية.

قال: يا زيادي، كيف تكتبُ بين رجلٍ وامرأةٍ خالعَها على الثلث من صَداقها؟

قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم هلالِ الرأي.

قال: يا هلال، كم أسند ابن عونٍ عن الحسن؟

قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم الشاذكوني.

قال: يا شاذكوني، من قرأ: ﴿**تثنوني صدورهم**﴾[1].

قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم أبي حاتم.

قال: يا أبا حاتم، كيف تكتبُ كتاباً إلى أمير المؤمنين، تصفُ فيه خَصاصةَ أهلِ البصرة، وما أصابهم في الثمرة، وتسأله لهم النَّظَر والنَّظِرة؟ قلت: لستُ صاحبَ بلاغةٍ وكتابة، أنا صاحبُ قرآن.

قال: ما أقبحَ الرجلَ يتعاطى العلمَ خمسينَ سنةً لا يعرفُ إلا فنّاً واحداً، حتى إذا سُئِلَ عن غيره لم يجل فيه ولم يمُر[2]، لكنَّ عالمَنا بالكوفةِ الكسائيَّ لو سُئِلَ عن هذا كلِّه لأجاب)[3].

وبعد!!!

---

(١) (وهي قراءة شاذة تروى عن ابن عباس).

(٢) في بعض الكتب تُروى هذه العبارة: (لم يحل فيه ولم يمرّ) من الحلاوة والمرارة.

(٣) من ترجمة الكسائي.

فكم بيننا من أناسٍ أناخُ اليأسُ بثقلهِ على صدورهم، فلا يستطيعونَ قياماً، بل لا تخطرُ فكرة القيام مرةً أخرى على أذهانهم؟!!

وكم من شابٍّ شديدٍ قويٍّ، لكنَّ عزيمَته قد شابتْ، فما عادَ يفكِّرُ بالقيامِ أبداً؟!!

وكـم بيننا من شـخصٍ فشِـل مرةً، فـرأى أنَّ هذا الفشـلَ هو خاتمةُ طريـقِ النجاح، ولم تحدِّثْه نفسُـه بالنهـوضِ مرةً أخرى.

إنَّ النجـاحَ غيـرُ مرتبطٍ بسـنٍّ دونَ سـنٍّ، وليس معلَّقـاً على مرحلةٍ دونَ مرحلة.

إنَّه ليس للشباب دونَ الشيوخ.

إنَّه ليس للرِّجالِ دونَ النِّساء.

إنَّه ليس للأقوياء دون الضعفاء.

إنَّه ليس للأغنياء دون الفقراء.

إنَّه ليس لأمةٍ دون أمَّة، ولا لشعب دون شعب، ولا لجنس دون جنس.

لكنَّه لمن عرفَ قيمةَ ما يطلب، فهان عليه ما يبذُل.

إنَّـه لمـن أدركَ أنَّ القطـارَ لـم يفُتْه ولـو كان بعيـداً، وأنَّ اللَّحاقَ به حليـفُ كلِّ مثابرٍ، ولو جـاءتْ مثابرتُـه متأخرة.

إنَّه لمن عرفَ أنَّ الرَّاحةَ لا تُدرَكُ بالرَّاحة، وأنَّ إدراكَ القطارِ لا يكونُ بالتمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكنَّه بالعملِ الجادِّ، والسَّعيِ الدَّؤوب، والهِمَّة العالية التي لا تعرف الكسل، ولا ترضى بالقعود.

والمجدُ لا يُشــرى بقولٍ كاذبٍ إن كنتَ تبغي المجدَ يوماً فافعلِ

الفاتح الحقيقيُّ لبلاد الأندلس
وهو أعرجُ قد جاوز السبعين

موسى بن نُصَير

ليس مَن مات فاستراحَ بميْتٍ … إنَّما المَيْتُ ميِّتُ الأحياءِ
إنَّما المَيْتُ مَن يعيشُ كئيباً … كاسفاً بالُه قليلَ الرَّجاءِ[1]

ربَّما لو قرأتَ هذين البيتين على مسامع الكثير ممّن حولك لاستغربوا حالَ هذا الموصوف في هذين البيتين، ولأنكروا عليه هذه النظرةَ التشاؤميةَ إلى الحياة، وأنَّه دفنَ نفسَه قبلَ أوان الدَّفن، وعايشَ الموتَ قبل قدومِه، فمات وهو ما يزالُ بين الأحياء.

لكنّ الحقيقةَ والواقع أنَّ كثيراً من هؤلاء المستغربين يعيشون هذه الحالةَ في حياتهم، وخاصّةً أولئك الذين يصلون إلى سنِّ السِّتِّين ويتركون العمل الذي كانوا يعملونَه منذ سنواتٍ طويلة، فيعتادون تلكَ الحياةَ الرَّتيبةَ التي لا يريدونَ تغييرَها، ولا يقبلونَ بذلك التَّغيير.

فمن المعروفِ أنَّ سنَّ التَّقاعدِ في غالبِ البلادِ هو سنُّ

(١) لعديّ بن الرّعلاء الغسّاني، وهو من شعراء الأصمعيّات.

الستِّين؛ حيث يُحالُ الموظفُ على التَّقاعد[1]، بعد أن يكونَ قد خدمَ دولتَه سنواتٍ متطاولة.

ولستُ أدري لماذا يخافُ كثيرٌ من الموظفينَ من هذه السنِّ؟!

وعلامَ يظنُّونَ أنَّ سنَّ الستين هي المحطةُ الأخيرةُ في الحياة؟!!

والأمرُ لا يتعلَّقُ بالأمورِ الماديَّة فحسب، فقد يتقاضى هذا الموظف راتباً تقاعديَّاً، أو تعويضاً عن نهايةِ خدمتِه يُغنيه عن مسألةِ النَّاسِ ولو إلى حين.

لكنَّ الأمرَ يتعلَّقُ بشعورِ هذا الموظَّفِ بالفراغِ الذي لا يعرفُ كيفَ يملؤُه.

فتراه بعد تقاعدِه من وظيفتِه كثيرَ الخصامِ مع مَن حولَه من زوجةٍ وأولاد، حتَّى يملُّوا بقاءَه ويستثقلوا وجودَه.

ولو فكَّرَ هذا المتقاعدُ لحمِدَ ربَّه على هذه النّعمةِ التي منَّ اللهُ تعالى بها عليه، والتي يغبطُه عليها كثيرٌ من النَّاس، لكنَّه لا يبصرها ولا يشعرُ بها حتَّى يفقِدَها.

تذكَّرتُ هذا الكلام حين قرأتُ في سيرة (موسى بن نُصير) رحمه الله تعالى، موطِّئِ الفتحِ في المغرب، والفاتحِ الحقيقيِّ للأندلس.

---

(١) الصحيح أن يقال: أُحيل فلانٌ على التقاعد، أمَّا أُحيل إلى، فهو خطأ شائع.

لقد بدأ هذا الرَّجلُ مشوارَ فتحِه بعد أن جاوزَ السَّبعينَ، أي: بعدَ عشَرةِ أعوامٍ من السنِّ التي يظنُّها كثيرٌ منَّا المحطَّةَ الأخيرةَ في رحلةِ الإنتاج.

لم يقلْ رحمه الله تعالى: إنَّ القطارَ قد فاتَني، ولم يجزَعْ ويدْهَشْ حين رأى نفسَه قد لحِقَ بالقطارِ بعدَ السَّبعين.

بل قد صار سائقاً لهذا القطار، وقائداً لجميعِ الرُكَّابِ فيه؛ لأنَّه كان يؤمنُ في أعماقِ نفسِه أنَّه سيلحقُ به ولو بعدَ حين، فعندما أُوكِلتْ إليه مهمة قيادة القطار، تسلَّمَ زِمامَ الأمورِ بحكمةٍ وتروٍّ، وسارَ به في طريقِ العُلا والخلود، وصنعَ لنفسِه ولأمتِه مجداً طارفاً يُضافُ إلى مجدِها التَّليد[1].

وكان عقبةُ بن نافعٍ رضي الله عنه، قد فتحَ المغربَ من قبلُ، وكان كلَّما فتحَ مكاناً توغَّلَ إلى ما بعدَه ليُعليَ فيه رايةَ لا إلهَ إلا الله.

وكان هذا التَّوغلُ قبلَ أن تستتبَّ الأمورُ له تماماً في مكان الفتحِ السَّابق، فصار ظهرُه مكشوفاً، واجتمعَ عليه البربرُ الذينَ لم يكونوا قد عرفوا حقيقةَ الإسلامِ جيِّداً فقتلوه.

---

(١) الطَّارِف والطَّرِيف: هو مَا استحدثتَ من المَال، والتَّالدُ والتَّليدُ: مَا ورِثْتَه عَن الآبَاء قَدِيماً.

وحين أُوكلتْ مُهمةُ الفتحِ إلى موسى بن نُصير، درسَ أسبابَ ما حصلَ في المغرب، وقلَّبَ وجوهَ الرَّأيِ في تلك الأسباب، ثمَّ بحثَ لها عن حلولٍ تناسبُها.

فما الفائدةُ من أن أشخِّصَ الدَّاءَ وأعرفَ دواءَه، ثمَّ لا أمدَّ يدي لتناولِ ذاك الدَّواء؟!!

ولذا فقد قرَّرَ موسى بن نُصير رحمه الله تعالى أن يتروَّى ويتَّئِدَ في سيرِ فتوحاتِه.

فإنَّه حين وصل إلى المغرب وجدَ جنودَ الفتحِ في بيوتٍ من القَشِّ لا تكادُ تردُّ السِّهامَ والرِّماحَ، فضلاً عمَّا فوقَها.

ووجدَ البربرَ يحيطونَ بهذه البيوتِ من كلِّ جانب، وهم يتلمَّظونَ غيظاً على هؤلاءِ الجنودِ الذينَ غزَوا أرضَهم.

فرأى لِزاماً عليه أن يُبصِّرَ هؤلاءِ البربرَ بحقيقةِ هذا الدِّين، ولا يكتفيَ بإسلامِهم الظَّاهري، الذي قد يكونُ خوفاً من السَّيف.

فاستقدمَ عدداً كبيراً من علماء التَّابعين المنبثِّينَ في الأمصارِ الإسلامية، وطلبَ إليهم تعليمَ إخوانِهم البربر من هؤلاءِ المسلمينَ الجددِ أمورَ دينِهم، وإطْلاعَهم على كنوزِه؛ لكي يعرفوا روعتَه، فيكونَ دخولُهم فيه عن قناعةٍ ثابتة.

وصار يطوفُ بنفسِه على حِلَقِ العلمِ، ويباشرُ تعليمَ إخوانِه الجددِ ما تعلَّمَه من قبل، فكان لعملِه هذا أثرٌ عظيمٌ في نفوسِ البربر.

وراحوا يتساءلونَ في أنفسِهم:

أيُعقَلُ أن يتواضعَ فاتحٌ ويجلسَ مع مَن فتحَ بلادَهم؟!

أيأكلُ هذا الفاتحُ مِمَّا نأكلُ ويشربُ مِمَّا نشربُ ولا يجدُ غضاضةً في نفسِه؟!

ما هذا الدِّينُ الجديدُ الذي يَدينُ به هؤلاءِ الفاتحون؟!

لا بدَّ أن يكونَ عظيماً ليصبغَ أخلاقَهم بهذه الصِّبغة.

ولذلك فقد تمسَّكَ هؤلاءِ البربر بدين الإسلام، وصاروا من جنودِه المدافعينَ عنه، بل صاروا من الفاتحين مع موسى بن نُصير.

ولم يتوقف رحمه الله عندَ الاهتمام بالمعنوياتِ فحسْب، بل لقد أولى الجوانبَ الماديَّةَ عنايةً كذلك، حيث أعاد ترتيبَ الجيشِ من جديد، بعد أن انضمَّ المسلمونَ الجددُ من البربرِ الذين حسُن إسلامُهم، حين عرفوا حقيقةَ الدِّينِ الذي يدعو إليه هؤلاءِ.

وحين استقرَّ به المُقامُ في المغرب، واطمأنَّ إلى أنَّ ظهرَه غيرُ مكشوفٍ، أرسلَ طلائعَ من جيشِه إلى الأندلس، بقيادةِ أحدِ جنودِه الأفذاذ طارق بن زياد، وكان هذا القائد من البربر.

يا عجباً!!! لقد أصبح أعداءُ الأمس إخوانَ اليوم، وصاروا معهم في خندقٍ واحدٍ يدافعونَ عن مبادئهم وينشرون العدلَ والرَّحمة.

إنَّ هـذا الدِّيـنَ ليعلـو ولا يُعلـى عليـه، ولن يُشـادَّه أحـدٌ إلا غُلِبَ واندحر.

إنَّه بحرٌ يبتلعُ كلَّ السَّواقي التي تصبُّ فيه.

وبعـد ذلـك تبـعَ موسـى بـن نصير طـارقَ بـنَ زيـاد، وأكمـلا معاً فتـحَ الأندلس.

وبقي رحمه الله عشرَ سنواتٍ يجاهدُ مع جنودِه حتى بلغَ الثَّمانين، هذا وهو أعرجُ قد حطَّ اللهُ عنه الجهادَ حين قال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

إنَّها عشرُ سنوات!!!

لا شهرٌ ولا شهران، قضاها موسى بن نصير في جِدٍّ واجتهادٍ، وقتالٍ وجهاد، لم يمنعْه كِبَرُ سنِّه من أن يفعلَ ما فعل.

ربَّما تأخرَ وقتُ ركوبِه القطار.

وربَّمـا ظـنَّ الظَّانُّـون أنَّ القطـارَ قـد فاتَـه، وأنَّـه سـيَقبعُ فـي محطَّـةِ اليـأسِ والقُنـوط، واضعـاً يـدَه علـى خـدِّه ومتحسِّـراً علـى مـا فاتَـه مـن سـعيٍ في أيـام الشَّـباب.

فيا معشرَ الشَّباب!

إنَّ طريقَ المجدِ طويلٌ طويل، وهو ليس مقتصراً على سنٍّ معينة، فاسعَوا إلى تحقيقه، واحتملوا ما يصيبكم لأجل هذه الغاية السامية.

وقد تُدركونَه الآن!!!

وقد يتأخرُ وصولُه بعضَ الزَّمن!!!

وقد يطولُ تأخُّرُه!!!

لكنْ إيَّاكم أن تقنطوا أو يُدرككم اليأس؛ فإنَّ اليأسَ كالماء الذي يُطفِئُ جذوةَ النشاط!!

إنَّه كالكهفِ الذي يمنعُ شمسَ الحيويةِ من أن تشرقَ على المتفائلين؛ ليظلُّوا قابعينَ في ظلامِ يأسِهم وسوادِ ظُنونِهم، وليموتَ في نفوسِهم أملُ القيامِ من جديد فتصوِّحَ نباتاتُ التفاؤلِ، وينبُتَ شوكُ الخمولِ.

ويا مَن طال انتظارُهم مركبَ الخلاص!

إنَّ هذا المركب لن يأتيَكم وأنتم قابعون في مكانَكم.

فجدُّوا واجتهدوا، واسعَوا لبلوغ هذا المركب، و﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

صانع الأقفال
الذي صار من
أعلم أهل زمانه

أبو بكر القفَّال المَروَزيّ

إنَّما الدُّنيا حُظوظٌ قُسِمَتْ كان لي منها نصيبُ العَدَمِ[1]

كان أبو بكر القفَّال يردِّدُ هذه المعاني، ويرى أنَّه لا حظَّ له في هذه الدُّنيا، ولا نصيب، مهما قدَّمَ في الدُّنيا من عملٍ، ومهما بذلَ من الجهود ما بذل.

وأنَّه مهما سعى فلن يَلتفِتَ النَّاسُ إلى سعيِه أبداً، ولن يكونَ لهذا السَّعي قيمةٌ في عيونهم، بل ربَّما قتلوا صاحبَ هذا السعي بتعليقاتهم السَّاخرة، وكلماتهم المثبِّطة، وإهمالِهم لِما يفعل.

وإنَّما سيمتدحونَ المشهورينَ عندَهم، ويعظِّمون الأعمالَ التي يقومُ بها هؤلاء المشهورون، ولو لم تكن ذاتَ قيمةٍ تُذكر، ولن يلتفتوا إليهِ ولا إلى عملِه وعملِ أمثالِه من المغمورين، المدفونين في وَحَل النسيان، ومستنقع الحرمان.

---

(١) لصديقي الأستاذ سامح شعبان.

وذلك حالُ البشرِ في كلِّ زمانٍ ومكان؛ فهم يمتدحونَ مَن لا يحتاجُ إلى مديحِهم من أصحابِ الشهرةِ والمناصب، ويضِنُّون[1] بكلمةٍ واحدةٍ على مَن قد تكونُ هذه الكلمةُ مُنقذاً له من مستنقع اليأسِ والخمول، وحافزاً له ليستمرَّ في عملِه الذي قام به.

ولعلَّ هناك إشارةً إلى هذا المعنى في قول النبيِّ ﷺ: «**بِئْسَ الطَّعَامُ طعامُ الوليمةِ؛ يُدعَى إليها الأغنياءُ، ويُتْرَكُ الفقراءُ**»[2].

فالوليمةُ حين يُدعى إليها مَن لا يحتاجُ إلى الطعام، ويُمنعُ عنها مَن هو بأمسِّ الحاجة إلى لقمةٍ تُقيمُ أودَه، فهي شرُّ الطعام.

وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى المشاعر، بل لعلَّ حاجةَ الإنسانِ إلى المشاعر والأحاسيس أشدُّ من حاجته إلى الطعام.

فشرُّ العبارات ما كان يُكالُ لمن لا يَحتاجُ إليه من المشهورين، ويُمنَعُ عمَّن يحتاج إلى كلمةٍ واحدةٍ قد تنقذه من الموت، وتدفعُه إلى النهوض من جديد، ومواصلة مشوارِه.

وقد كان أبو بكرٍ هذا قفَّالاً، يُجيدُ صنعَ الأقفال بمهارةٍ منقطعة النظير.

---

(١) ضنَّ يضِنُّ؛ أي: بَخِل يبخَل، ومنه قوله تعالى: (**وما هو على الغيب بضنين**).

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سـمِع مـرةً أنَّ النَّاسَ افتُتِنـتْ بقفلٍ يزنُ دانقـاً[1]، صنعَـه القفَّالُ أبو بكـرٍ الشَّاشـي[2]، فتمنَّـى أن يسـمعَ مـن المديحِ جزءاً يسـيراً ممَّـا مُدحَ بـه ذاك الرَّجل.

فعاد إلى محلِّه وأفرغَ جهدَه، وصبَّ خبرتَه الطويلةَ التي اكتسبَها منذُ زمنٍ طويلٍ حتَّى صار الآنَ في الأربعين من العمر.

واستطاع بعد سهرٍ طويلٍ متواصلٍ، وجهدٍ مُضنٍ أن يصنعَ قفلاً يزنُ معَ مفتاحِه ربعَ دانق[3]؛ أي ربعَ وزنِ القفل الذي صنعه من قبلُ أبو بكرٍ الشاشيُّ، وافتُتِنَ بِه النَّاس.

ففـرحَ كثيـراً واسـتبدَّتْ بـه النَّشـوةُ؛ لأنَّـه سـيعرِضُ القفـلَ علـى النَّـاسِ ليـرى مـدى تأثرِهم بما صنعَه، ويسـمعَ شـيئاً مـن المديح الذي قيـلَ لأبـي بكرٍ الشّاشـي.

---

(١) الدَّانِقُ يساوي جزءاً من ستة أجزاء من الدِّرهم، والدِّرهم يزن ٢,٩٧٥ من الغرامات، يعني حوالَي ٣ غرامات.
فعلى ذلك يكون وزن الدَّانق حوالَي نصف غرامٍ تقريباً.

(٢) هو الإمام محمد بن علي بن إسماعيل أبو بكر الشاشي القفَّال، أحد أئمةِ الدنيا في التفسير والحديث والفقه واللغة، كان إماماً أصولياً لغويّاً محدثاً شاعراً، أفنى عمره في طلب العلم ونشرِه، وشاع ذكره في الشرق والغرب، وهو إمامُ عصرِه بما وراءَ النهرِ للشافعيين، وأعلمُهم بالأصول، وأكثرُهم رحلةً في طلب الحديث.

(٣) يعني حوالَي ١,٢٥ من ١٠ أجزاء من الغرام. فانظرْ إلى هذا الإتقان في ذاك الزَّمن.

بل إنَّه توقَّعَ أن يسمعَ أكثرَ ممّا قيل في ذاك الرّجل؛ لأنَّه صنع قفلاً مع مفتاحه بربع وزن ذاك القفل الذي قيل فيه ذاك المديح.

وطار النومُ من عينيه بانتظار بزوغ الفجر.

آهٍ أيها الليلُ ما أطولَك، وأصعبَ الانتظارَ فيك!!

آهٍ ما أثقلَ ساعاتِك على نفسي!!

أما لكَ من انقضاء؟!!

أما لظلامك من انتهاء؟!

وأنت أيها الصباح، ما بالُك قد تأخرتَ عليَّ حتى ظننتُكَ قد رحلتَ بلا رجوع.

إنِّي لأشتاقُ إليك شوقَ الأرض العطشى إلى لقاء المطر!!

وشوقَ يعقوبَ إلى عناقِ يوسفَ وشمِّه!!

وشوقَ أمِّ موسى إلى تقبيل موسى وضمِّه!!

ولكنْ!!!

ما كلُّ ما يتمنَّى المرءُ يُدركه!!! فحين طلع الصباح، وعرضَ أبو بكرٍ المروزيُّ قفلَه على النَّاس لم يلتفت إليه أحد، ولم يسمع كلمةَ مديحٍ من مادح.

يا تُرى!!

أليس هؤلاء النّاس هم أنفسهم مَن مدحَ ذاك القفل الذي صنعه أبو بكر الشَّاشي؟!

هل انعقدتْ ألسنتُهم عن الكلام فما عادتْ تنطق؟!

ألم يملؤوا مِن قبلُ سمعَ الدُّنيا مديحاً لذاك القفل؟!

يا عجباً لهؤلاء الناس!!

حتى الكلامُ يضِنُّونَ به، ولا يعطونَه لمن يحتاج إليه؟!

فكيف لو سألتُهم مالاً؟!

وحزنَ أبو بكر المروزي حزناً شديداً؛ لأنَّ النَّاسَ تَكيلُ الأعمالَ بميزانين، ولا تعدِلُ في شهادتِها مع المبدعين.

فليس يعنيهم من المبدعِ إبداعُه، وإنَّما الذي يعنيهم هو مكانةُ هذا المبدعِ في المجتمع.

(فقال يوماً لبعض من يأنَسُ إليه: ألا ترى؟!!

كلُّ شيءٍ يفتقرُ إلى الحظّ؟!

عَمِلَ الشَّاشيُّ قُفلاً وزنُه دانقٌ وطَنَّتْ به البلاد، وعملتُ أنا قفلاً بمقدارِ ربعِه ما ذكرني أحدٌ!!

فقال له: إنما الذِّكرُ بالعلمِ لا بالأقفال)[1].

وحين سمعَ المروزيُّ كلمةَ (العلم) أحسَّ لها وقعاً عظيماً، وصار كلُّ عضوٍ من أعضائِه يتمنَّى أن يكونَ أذناً ليلتذَّ بسماعِ تلك الكلمة كما تلذَّذت بسماعِها الأذنان.

وصار يكرِّرُ أمامَ عينيه (فِلمٌ) طويلٌ من سيَرِ علماءِ تلك الأمَّةِ عامةً، وعلماءِ بلادِه بلادِ ما وراءَ النَّهرِ خاصَّةً.

فتمنَّى أن يكونَ كما كان أبو بكرٍ القفَّال الشَّاشي.

نعم!!!!

إنَّ هؤلاءِ العلماءَ يستحقُّونَ ما يرَونَ من احترامِ النَّاسِ ومديحِهم لهم؛ فقد بذلوا كثيراً من أوقاتِهم، وسهِروا الليالِيَ ذواتِ العددِ في سبيلِ تحصيلِ علومِهم.

لقد أكرموا العلمَ صغاراً، فأكرمهم العلمُ كباراً.

لقد قدَّموا له ما يستحقُّ أمس، فردَّ لهم شيئاً من عطاياهم الآن.

لا لـن أكـونَ ممَّن قـالَ اللهُ تعالـى فيهـم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

ولكنِّي أتمنَّى أن أكونَ مثلَهم!!

---

(١) من ترجمة أبي بكر المروزي في (معجم البلدان) لياقوت الحمَوي.

وأن أُعامَلَ كما يُعامَلون!!

وأحبُّ أن أنتهجَ النهجَ الذي انتهجوه لأنفسهم.

ولكنْ كيفَ السَّبيلُ إلى ذلك؟!!

وهل يمكنُني اللحاقُ بقطار العلم بعد أن فات؟!

لقد مضى أربعونَ عاماً من حياتي وأنا لا أعرفُ شيئاً.

فهل أستطيعُ الآن إدراكَ تلك الأوقات الطويلة التي فاتتني؟!!

يا الله!!!

كم هو ثقيلٌ وقعُ هذه الكلمة.. **(جاهل)**

تُرى!!!

ألم أكن أشعرُ بوقعِها من قبل؟!!

أكانَ إحساسي متبلِّداً إلى هذه الدَّرجة؟!!

كيف مرَّ من عمري أربعونَ عاماً وأنا راضٍ بالبقاءِ في هذه المنزلةِ الدُّنيا؟!

ألم تُبصرْ عيناياَ هذا الرَّكبَ العظيمَ من العلماء؟!

ألم أشاهدْ قطارَ العلمِ يحملُهم ليوصلَهم إلى مراتبَ تحاولُ اللَّحاقَ بركْبِ الأنبياء؛ لأنَّهم ورثتُهم الحقيقيون؛ إذْ إنَّ الأنبياءَ لا يورِّثونَ إلا العلم؟!

فكيفَ لم أنتبهْ إلى ذاكَ القطار؟!!

كيف لم يُوقظني مرورُه من غفلتي التي كنتُ غارقاً فيها؟!!

لقد فاتتْني منه محطَّاتٌ كثيرةٌ لا يكادُ العدُّ يُحصيها.

إنَّها أربعونَ عاماً!!!

أربعون عاماً من الجهل والخمول!!

أربعونَ عاماً، لم أعلمْ فيها هدفي من هذه الحياة!!!

أربعون عاماً كنتُ فيها كريشةٍ في مهبِّ رياح الضياع.

وماذا يبتغي الشعراءُ منِّي وقد جاوزتُ حدَّ الأربعينِ[1]

هذا ما قالَه الشَّاعرُ؛ حيث رأى أنَّه وصل إلى مرحلةٍ لم يعد فيها مجالٌ لسماعِ قولِ أحدٍ من الشعراء فيه؛ فقد جاوزَ الأربعين.

وها أنذا قد بلغتُ ما بلغَه هذا الشاعر، فماذا تُراني فاعلاً بعدَ هذه السنينَ التي تطاولَ وَقْعُها على جسدي؟!!

ماذا يمكنُني أن أقدِّمَ وقد كاد طائرُ العمر يطير؟!!

إنِّي لأنظرُ بعيني إلى قطار العلمِ فأرى أنَّه قد ابتعدَ كثيراً عنِّي.

وأنا أسلكُ مساربَ تتلوها مساربُ، كلٌّ منها يُفضي إلى الذي

---

(١) للشاعر سحيم بن وثيل الريَاحي.

بعـدَه، والقطـارُ مازالَ يبتعـدُ عنِّي، وأنـا قانعٌ بالقعـودِ ههنا.

لقد تقاسم القومُ الغنائم، وأنا على فراشِ الخمولِ نائم.

هَبُّوا إليها في الأسحار، وأنا ستغربُ شمسُ حياتي وما أزالُ قاعداً.

أدركوا الرَّبيعَ من أعمارِهم، فقطفوا فيه أينعَ الثِّمارِ وأعطرَ الأزهار.

وأنا بلغتُ خريفَ الحياةِ فماذا سأجدُ بعد أن أصبح البستانُ قَفْراً؟!!

ماذا سأجدُ ولم يبقَ من الثمار إلا القليل، وهذا القليلُ قد أدركه الجفافُ، فجفَّ أو كاد؟!!

ولكنْ لا!!!!

لن أيأَسَ، ولن أتوانى!!

وسأسعى للنهوضِ من جديد، ولو لم أحصِّلْ شيئاً، فيكفيني شرفُ المحاولة.

ولَأَنْ أصلَ متأخِّراً أحبُّ إليَّ من أن لا أصلَ أبداً!!

ولَأَنْ أكونَ في المقاعدِ الأخيرةِ من القطار أفضلُ من أن أكونَ ممَّن يشاهدُه ويتحسَّرُ على أنَّه لم يحصِّلْ مقعداً من المقاعد!!

ولَأَن يزورَني الموتُ وأنا في فئة طلاب العلم أفضلُ لي من أن يزورَني وأنا في زمرة الجُهَّال!!

وذهبَ أبو بكرٍ القفَّال المروزي، إلى شيخ من أهلِ مرو، وعرَّفه رغبتَه فيما رغِبَ فيه من طلبِ العلمِ والفقه.

وهل يمكنُه ذلك وقد بلغَ الأربعينَ ولمْ يقرأْ في كتابٍ قبلَ ذلك؟!!

وهل فاته قطارُ العلمِ أم أنَّ لَحاقَه ممكن؟!!

فشجَّعه الشيخُ، وأخبره أنَّ ذلك ممكنٌ، وما الذي يمنعُ من ذلك مادامَ في العمر بقية؟!

نعم!! ما الذي يمنع؟!!

هل أقام أحدٌ حاجزاً على طرق العلم ليمنعَ السَّالكينَ من وُلوجِها؟!!

وهل حمل الحرَّاسُ سيوفَهم ليضربوا بها من يريدُ سلوكَ طريقِ العلم؟!!

أم أنَّ النُّفوسَ تراختْ وأقامتْ من كسلِها حرَّاساً يمنعونَ السَّالكينَ من النُّهوض؟!

إذا أعجبتْكَ خِصالُ امرئٍ فكُنْه يكُنْ منكَ ما يُعْجِبُكْ

فليس على المجدِ والمكرُماتِ إذا جئتَها حاجبٌ يَحجُبُكْ[1]

(١) للشاعر العباسي أبي العيناء، وتُنسب إلى الطاهر بن الحسين.

ثمَّ أعطى هذا الشَّيخُ لأبي بكرٍ المروزي جملةً واحدةً من كتاب (مختصر المُزني)، وهي: (هذا كتابٌ اختصرتُه)، وطلبَ منه أن يحفظَها.

وحين عاد أبو بكرٍ إلى منزلِه صعد إلى سطحه وصار يردِّدُ هذه العبارة: (هذا كتابٌ اختصرتُه).

وظل يسيرُ في سطحِ المنزلِ جيئةً وذَهاباً وهو يردِّدُها حتَّى انصرمَ الليلُ وحلَّ الفجرُ، وهو لا يكَلُّ ولا يمَلُّ، مردِّداً هذه العبارةَ الصغيرة: (هذا كتابٌ اختصرتُه).

ثمَّ غلبتْه عينُه فنامَ بعدَ ذلك السَّهرِ المُضني والجهد الذي بذلَه في ترديد هذه العبارة.

وليس ذلك بمستغربٍ؛ فإنَّه حديثُ عهدٍ بالكتب؛ فلم يُمسكْ كتاباً منذُ أن رأتْ عيناه الدُّنيا، وها قد بلغَ الأربعين.

إنَّه كالمريضِ الذي يُقعِدُه مرضُه أربعينَ سنةً على فراشِه، فهل يستطيعُ المشيَ سويَّاً بعدَ هذه السنينَ المتطاولةِ من القعود؟!!

وحتى لو مشى فسيكونُ مشيُه مضطّرباً؛ لطولِ العهدِ بنسيانِه.

وليستِ المصيبةُ في الوقتِ الذي قضاه أبو بكرٍ المروزيُّ في ترديد هذه العبارة، فهو وقتٌ قليل لو قِيسَ بالأربعينَ سنةً التي مرَّتْ من عمره دون فائدة.

لكـنَّ المصيبـةَ في أنَّـه حين اسـتيقظَ من نومِه وجدَ نفسَـه قد نسِـيَ العبارةَ، وانسـلختْ مـن عقلِـه، وكأنَّها لم تمرَّ بـه أبداً.

وكأنَّه لم يقضِ ليلةً كاملةً ساهراً مردِّداً حروفَها القليلة.

فحـزنَ حزناً شـديداً، وقـد امتـزجَ حزنُه بالخجـلِ الكبيـرِ، فكيفَ سيشـرحُ لشـيخِه أنَّه نسـيَ العبـارةَ التي ظـلَّ طَـوالَ الليـلِ يردِّدُها؟!!

إنَّ هذا أولُ درسٍ له، والعبارةُ لا تتجاوزُ ثلاثَ كلمات، فكيفَ سيُقنعُ معلِّمه بأنْ يستمرَّ في تدريسِه، وقد نسي هذه العبارةَ الصغيرةَ بعدَ تَكرارِها لليلةٍ كاملةٍ من العشاء إلى الفجر؟!!!

وخرجَ أبو بكرٍ من بيتِه لا يَلوي على شيء، وهو يحملُ في صدرِه جبالاً من الهموم والأحزان.

كيف لي السيرُ في هذا الطريقِ وقد قضيتُ ليلةً كاملةً في حفظِ ثلاثِ كلمات، ثمَّ نسيتُها عند الصباح؟!!

ألا تَسْـألانِ المرءَ ماذا يُـحـاولُ أنَحْبٌ فيُقضى أم ضلالٌ وباطلُ[1]

فلا أدري يا تُرى!!!

هـل أنـا مصيـبٌ فـي اختيـارِ هـذا الطَّريـق، أم أنِّـي أضيِّـعُ الوقتَ دونَ طائـل؟!!

---

(١) للشاعر لبيد بن ربيعة.

أأُكمـلُ سـيري فيـه أم أكتفـي بهـذه الليلةِ التـي ضاعتْ علـيَّ دونَ تحصيل شـيء؟!!!

لقـد ضـاع مـن عمري أربعـون سـنةً، فهل أَجعـلُ ما بقي منـه هباءً منثوراً؟!

يا ربِّ خِرْ لي واخترْ لي.

ولكنَّ اللهَ تعالى إذا أرادَ تيسيرَ أمرٍ هيَّأ له أسبابَه، فحين خرجَ أبو بكرٍ من بيتِه حزيناً، رأتْه إحدى جاراتِه، فقالتْ له: لقد أسهرتَنا يا أبا بكرٍ وأنتَ تردِّدُ عبارتَك (هذا كتابٌ اختصرتُه)، فلم نعرفْ كيف ننامُ أمس.

ففرح أبو بكرٍ كثيراً؛ لأنَّ جارتَه قد لقَّنتْه العبارةَ التي نسيَها، لكنَّ فرحَه هذا كان يشوبُه شيءٌ من الحزنِ الدَّفين.

فأسرعَ السيرَ نحوَ أستاذِه الذي لقَّنه هذه العبارة، ثمَّ قصَّ عليه ما جرى معه في الليلةِ البارحة[1].

وقد كان شيخُه حكيماً شفيقاً عليه، فرأى أنَّ هذا الحدثَ أمرٌ طارئ، وقد يقعُ لأيِّ طالبٍ مهما كانَ مقدارُ ذكائِه، فكيفَ بمن بدأَ سيرَه بعدَ هذا الانقطاعِ الطويلِ عن السير؟!!

(١) من الأخطاء الشائعة قولُهم: ليلة البارحة، والصحيح أن يقال: (الليلة البارحة)؛ لأنَّ البارحةَ صفةٌ لهذه الليلة.

ثمَّ هَّدأ من روعِه وقال له: **(لا يصدَنَّك هذا عن الاشتغال؛ فإنَّكَ إذا لازمْتَ الحفظَ والاشتغالَ صارَ لك عادة)**[1].

فأحسَّ أبو بكرٍ القفَّال بجرعةٍ عظيمةٍ من النشاط والحماسة، ونسيَ الموقفَ الذي تعرَّض له من نسيانِ عبارةٍ ظلَّ يردِّدُها ليلةً كاملة.

لقد كانت هذه العبارة كالماء البارد الذي أطفأ نارَ الحَيرةِ التي في نفسه.

كانت كشاطئ الأمان الذي رستْ فيه سفنُ مخاوفِه ووساوسِه.

كانت كالشمس التي سطعتْ فأنارتْ له الطريق، بعد أن عُمِّيَتْ عليه مسالكُه، وعفا عليها غبارُ القلق.

وعاد إلى بيتِه مشمِّراً عن ساعدِ الجِدِّ من جديد، فقد صبَّتْ كلماتُ معلِّمه الأملَ في نفسِه.

وعمل بنصيحةِ هذا المعلم، فلازمَ **(الحفظَ والاشتغالَ)** بتلك الدروس حتى صارَ له **(عادةً)**.

نعم!!! لم يصبحْ ذلك له عادةً إلا بعدَ مُضيِّ زمنٍ طويل.

ولا بدَّ للَّيلِ أن ينجلي ولا بدَّ للقيدِ أن ينكسِرْ[2]

---

(١) من ترجمة أبي بكر المروزي في (معجم البلدان) لياقوت الحمَوي.

(٢) للشاعر التونسي أبو القاسم الشابِّي.

فقد انجلى ليلُ الجهل، وانكسرَ قيدُ ظُلمتِه، فالطريقُ مهما كان طويلاً، فإنَّ له نهايةً، والطريقُ الذي بدأه أبو بكرٍ القفَّالُ المَروَزيُّ، كان طويلاً جدًّاً، لكنَّ الخطوةَ الأولى التي خطاها أبو بكرٍ في هذا الطريق قصَّرتِ المسافةَ قليلاً.

نعم!! لقد لقي أبو بكرٍ العنتَ في تلك الليلةِ التي سهِرَها من أجل أن يحفظَ عبارةً من ثلاث كلمات.

ثمَّ نسي تلك العبارةَ بعد سهرِ ليلةٍ كاملة، حتى ذكَّرتْه جارتُه بها.

لكنَّ تلك الليلةَ كانت الشرارةَ الأولى التي انقدحتْ وأنارتِ الطريقِ لسالكِها.

فقد أكمل أبو بكرٍ القفَّال المروَزيُّ مسيرتَه، وكلَّما يئستْ نفسُه قليلاً، ونبَا سيفُ همَّتِه ذكَّر نفسَه بما كانت عليه من قبلُ وصار يقولُ لها:

يا نفسُ ما لكِ!!

أما تذكرينَ كيف كنتِ من قبل؟!

أتريدينَ أن تعودي إلى مستنقعِ الجهل بعد أن أنقذكِ الله منه؟!!

ألا تحتملينَ هذا التعبَ القليل كي تنعمي بالعلم الكثير؟!!

وظلَّ أبو بكر المروزي على ذلك حتى صار من كبار العلماء المعدودين الذين نشروا العلمَ في بلادِهم.

وقد صارَ بعدَ تلك المسيرةِ الحافلة (وحيدَ زمانِه فقهاً وحفظاً وورعاً وزهداً، وله في المذهبِ من الآثارِ ما ليس لغيرِه من أهلِ عصرِه، وطريقتُه المهذبةُ في مذهبِ الشافعيِّ التي حملها عنه أصحابُه أمتنُ طريقة، وأكثرُها تحقيقاً، رحلَ إليه الفقهاءُ من البلاد، وتخرَّج به أئمة)[1].

بل (لم يكن في زمان أبي بكر القفال أفقهُ منه، ولا يكونُ بعدَه مثلُه، وكنا نقول: إنه ملَكٌ في صورة الإنسان.

حدَّث، وأملى، وكان رأساً في الفقه، قدوةً في الزُّهد.)[2]

وعُمِّرَ رحمَه الله تعالى ثمانينَ عاماً، عاشَ منها أربعينَ عاماً خاملاً، يلبسَ ثوبَ الجهل، وأربعينَ عاماً عالماً يملأُ الدُّنيا ذكرُه.

ولم يكنْ شيءٌ من الشُّهرة الدنيويةِ همَّاً له؛ فقد (كان في كثيرٍ من الأوقات يقعُ عليه البكاءُ حالةَ الدرس، ثمَّ يرفعُ رأسَه ويقول: ما أغفلَنا عمَّا يُرادُ بنا!!)[3].

فيا مَن ظنَّ أنَّ القطارَ قد فاتَه وصار يلطِمُ خدَّيه حزناً على ما فرَّطَ في حياتِه!

---

(١) أبو بكر السمعاني في «أماليه»

(٢) الفقيه ناصر العمري.

(٣) حكاها تلميذُه القاضي حسين.

ويا من لم تتهيَّأْ له ظُروفُ التعلُّم في صغرِه، وهو يحلمُ بأن يعودَ صغيراً ليتعلَّمَ مِن جديد!!

ويا من استوطنَ الحزنُ قلبَه لأنَّه أعادَ قراءةَ صفحةٍ من القرآن عدَّةَ مراتٍ ولم تُحفَظْ معَه!!

ويا مَن استغلق عليه فهمُ مسألةٍ فرفع الراية البيضاء معلناً استسلامَه من إكمال طريق العلم!!

لا تيأسْ ولا تقنَطْ؛ فإنَّ البابَ ما يزالُ مفتوحاً.

ومادامَ قلبُكَ ينبِضُ بالحياة فإنَّك قادرٌ على فعل ما تريد.

فانفُض عن نفسك غبارَ الكسل!!

وألقِ عن جسدكَ كساءَ الخمول!!

واخلعْ عن روحك ثوبَ التقهقر!!

وقم من جديد؛ فإنَّ الطريقَ ينتظرك، فاسلكْه مع السالكين.

وتذكَّر وأنت تسعى ما قاله الشَّاعرُ أبو الحسن التِّهامي:

ماشابَ عَزْمي ولا حَزْمي ولا خُلُقي ... ولا ولائي ولا دِيني ولا كَرَمي

وإنما اعتاضَ رأسي غيرَ صِبغْتِه ... والشَّيبُ في الرَّأسِ غيرُ الشَّيبِ في الهِمَمِ

مِن خادمٍ في الجامع الأزهر
إلى أحد أعظم شيوخه وعلمائه

الشيخ خالد الأزهري (الوقَّاد)

(لو كان الفقرُ رجلاً لقتلتُه)

هكذا قال سيدُنا عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله تعالى عنه واصفاً هذا الزَّائر الثقيل الذي يجثُمُ على صدرِ صاحبِه ويعتنقُه فلا يكادُ يفارقُه، حتّى يكونَ صاحبُه هو الذي يسعى سعياً لفراقِه، وربَّما لا يستطيعُ ذلك إلا بشِقِّ الأنفس.

ولذلك قال سيدُنا عليٌّ رضي الله تعالى عنه هذا الكلامَ عن هذا الزائر الثقيل.

وليس ذلك تبرُّماً بزيارتِه فحسب، بل لأنَّه يَشغَلُ صاحبَه عن أشياء كثيرة.

فكم مِن طالبٍ ذكيٍّ منعَه الفقرُ من إتمام دراستِه، ولو أتمَّها لكان له شأنٌ عظيمٌ في المجتمع!!

وكم من مخترعٍ أُريقَ دمُ اختراعاتِه مع قطرات العرق التي تَرشَحُ من جبين صاحبِها وهو يبحث عمَّا يسدُّ رمقَه من طعام!!

وكم مِن شجاعٍ مقدامٍ دُفِنتْ شجاعتُه في أرضِ الخمول، ولم تجدْ مَن يسقيها لتَنبُتَ من جديدٍ، فماتت قبل أن تُبصرَ النُّور!!

(فلـو كلَّفونـي بصلة ما فقهْتُ مسـألة) كمـا يقول الإمام الشّـافعي رحمـه الله تعالى.

ولكنْ!!!

هناك مِن الفقراء مَن لا يقبل بالخضوع، ويقاومُ الفقرَ ويصارعُه، فيصرعُه حيناً، ويُصرَعُ أحياناً.

ولكنَّه يقوم بعد ذلك وينفُضُ عن نفسِه غبارَ الخضوع ويقفُ مِن جديد.

وليس الفقرُ فقرَ المالِ فحسب، بل إنَّ فقرَ العلمِ لأدهى وأمرُّ من فقر المال، بل إنَّه كثيراً ما يكون سبباً لفقر المال.

وقد كان الشيخ خالد الأزهري من هذا القبيل.

كان يُلقَّبُ **(الوَقَّاد)**، وهي مهنةٌ يتقاضى صاحبُها بعضَ الجنيهات ليتعهَّدَ قناديلَ الجامعِ الأزهر، ويملأَها زيتاً، ويُوقدَها حينَ يحلُّ الظَّلام.

جاء الشيخ خالد الأزهري من الصَّعيد إلى القاهرة، فحفظ القرآن الكريم.

وكان ينوي إكمال تعليمه، لكنَّ حاجزَ الفقر منعَه مِن ذلك، فاضطُرَّ

إلى ترك طلبِ العلم؛ ليعملَ (وَقَّاداً) في الجامع الأزهر، يَعتاش بتلك الجنيهات القليلة التي ينالُها من عمله في تلك المهنة.

وكان يعتلجُ في نفسِه أمران يؤرِّقانِه الليالِيَ ذوات العدد، ويتركانِه أسيرَ تلك الأفكار والخواطر.

يا تُرى!!!

إنِّي لأشتهي طلبَ العلم مع هؤلاء الطلبة، ولكنْ هيهات هيهاتَ وهذا الفقرُ مشمِّرٌ عن ثيابِه، يكادُ يعضُّنا بنابِه، فليتَ ما حلَّ بنا بِهْ.

ولكنْ!!

هل هذه هي الغايةُ التي جئتُ لأجلِها من الصَّعيد إلى القاهرة؟!

أيكونُ منتهى أملي أن أقفَ عندَ هذه الغاية لا أتقدَّمُها؟!!

آهٍ ثمَّ آهٍ من هذه الخواطرِ التي تُراودُني، ما لي أراها تؤرِّقُ مَضجعي وَحدي، ولا يُباليها غيري مِمَّنْ حالُه مثلُ حالي؟!!

إنِّي لأشقى بهذه الحياة في الوقت الذي يراها فيه غيري مرتَعاً خِصباً.

لله دَرُّ أبي تمامٍ حين قال:

ذو العقلِ يَشقى في النَّعيمِ بعقلِه وأخو الجهالةِ في الشَّقاوةِ يَنعَمُ

ثمَّ يغلبه النَّوم بعد صراعٍ طويلٍ مع الأرق؛ فإنَّ التعبَ الشديدَ الذي يشعرُ به يصرعُ تلك الأفكارَ التي تُراودُه في الليل، ثمَّ يعودُ في صباح اليوم الثاني إلى مزاولة عملِه، وإلى الغرقِ في لُجَّةِ هذه الحياة.

ثمَّ تمرُّ الأيامُ يعقب بعضُها بعضاً، فتتلاشى تلك الأمانيُّ أو تكاد..

علِّلاني فإنَّ بِيضَ الأماني فَنِيَتْ.. والظلامُ ليس بفانٍ[1]

نعم!!!

إنَّ بِيضَ الأماني قد فنِيَتْ وتلاشتْ، ولم يبقَ أمامَ ناظري إلا هذا الظلامُ المتطاول.

.. ظلامٌ بعضُه فوق بعض.. ظلامُ الفقرِ.. وظلامُ الليل.. وظلامُ الرِّضا بهذه الحال[2] دون محاولةِ تغييرِها.

آهٍ منكَ أيها الليل!!

يا ليلَ الأحزان!!

يا ليلَ الآهات!!

يا ليلَ الفقرِ والحِرمان!!

يا ليلَ الخنوعِ والخضوع!!

---

(١) لأبي العلاء المعرِّي.

(٢) الحال: تؤنَّث وتُذكَّر، والأولى تأنيثُها.

أما لكَ مِن انقضاء؟!!

أما لكَ مِن نهاية؟!!

أما آن لصُبحِ الخلاصِ بأن يطلُعَ؟!!

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انـجـلِ بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ[1]

نعم أيُّها الليلُ الطويل، فليس الصبحُ بأحسنَ حالاً منك.

بل إنَّه قد يكونُ أصعبَ على نفسي؛ لأنِّي سأعودُ إلى تلك المهنة من جديد، وأرى العلمَ يتفلَّتُ من يدي كما يتفلَّتُ الماءُ من يد القابضِ عليه، فما يزالُ ظمآنَ والماءُ بينَ يديه.

أو كالإبل التي تموتُ عطشاً في الصَّحراء، والماءُ فوقَ ظهورِها.

ومن العجائبِ والعجائبُ جمَّةٌ قـربُ الحبيبِ وما إليه وصولُ

كالعِيسِ في البيداءِ يقتلُها الظَّما والماءُ فوقَ ظُهورِها محمولُ[2]

وكانـت فكـرةُ العودةِ إلـى رَكْب العلـم كفتائلِ تلـك القناديل التي يُوقدُهـا الشـيخ خالـد الأزهـري فـي الجامـع الأزهـر، لا تـكادُ تنطفئُ فـي الليـل، لكنَّهـا فـي نهايـة كلِّ ليلـةٍ تخبـو وتنطفـئُ مع طلـوع الفجر لنَفـادِ الزَّيـتِ في تلـك القناديل.

---

(١) لامرئ القيس.

(٢) انظر: (حياة الحيوان الكبرى) للدَّميري، دار الكتب العلمية، ج٢/ ص: ٢٣٢

وكذلك هذه الأمنيّةُ، التي ينقطعُ عنها زيتُ الحَميَّةِ والنَّشاطِ فتخبو وتنطفِئُ مع انقضاءِ الليل.

وذلك في كلِّ ليلةٍ، من الليالي.

لكـنَّ موقفاً حصـلَ مع الشـيخ خالد الأزهـري أوقدَ في نفسِـه نارَ الحميَّـةِ وصبَّ عليها زيتَ النَّشـاطِ.

فقد كان هناك عددٌ من الطلاب يدرسون في الجامع الأزهر، وقد اقتربوا من القناديل لنيل أكبرِ قدْرٍ ممكنٍ من الضوءِ المنبعثِ منها.

واقتربَ (الوقَّاد) خالد الأزهري لملءِ هذه القناديل بالزيت، وكان في ذاك الوقت قد ناهز السادسةَ والثلاثين، فهو يرى أنَّ قطار العلمِ قد فاتَه، ورحل عنه بعيداً، وأنَّ العمرَ قد ولَّى فما عادت فيه بقيّةٌ تَصلُحُ لطلب العلم.

لقد ابتعد قطارُ العلمِ كثيراً، وما عادت الأماني تُدركُه...

لقد فات القطارُ..

نعم!! لقد فات

وعليَّ أن أرضى بما أنا عليه؛ ففي الرضا راحةٌ لهموم نفسي المعذبة من تلك الأفكار!!

وما الذي سأجنيه من سهري مفكّراً بذلك؟!!

وحين بدأ الوقَّادُ بمَلءِ أحدِ القناديل بالزَّيت، انسكب قليلٌ منه على كتاب أحد الطلَبةِ، كان جالساً تحتَه.

فغضب الطالبُ غضباً شديداً، وصبَّ جامَ غضبِه على الوقَّاد، وشتمَه أمامَ النَّاس، وعيَّرَه بجهلِه.

وأنَّه لا يعرف قيمةَ هذه الكتب والمعلوماتِ التي يُحشِّيها الطلابُ على أصل الكتاب، فجهلُه بها جعلَه يستسهلُ أمرَ انسكابِ الزَّيتِ على الكتاب.

وحاولَ الوقَّادُ تقديمَ الاعتذار لهذا الطالب، لكنَّه رفضَ اعتذارَه، ولم يسمح له بالكلام، بل استطال عليه أمام النَّاس، ونعتَه بالجهل.

فخجل الوقَّاد وتمنَّى لو تنشَقُّ الأرضُ فتبتلعُه ليتخلَّصَ من نظراتِ النَّاسِ إليه.

لقد صار يتمنَّى الموتَ لينجوَ من هذا المأزق الذي وقعَ فيه، فالموتُ عندَه أهونُ من هذا الذلِّ الذي عايشَه في تلك اللحَظات.

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافياً وحسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا[1]

يا تُرى!!

أكنتُ قاصداً انسكابَ الزَّيتِ على كتاب هذا الطَّالب؟!

---

(١) للمتنبّي.

أولا يكفيني ما أنا فيه من فقرٍ مدقعٍ وألمٍ وهوانٍ حتى يُفيضَ عليَّ هذا الطالبُ من شتائمِه؟!!

أليسَ الأجدرُ به أن يكونَ عوناً لي ويقفَ معي في وجه الفقر والجهل بدلَ أن يكونَ ضدِّي معهما؟!

ألا يكفيني أعدائي الذين سُلِّطوا عليَّ من قبلُ ليكثِّرَ هذا الطّالبُ سوادَهم عليَّ ويَزيدَ أحزاني وأتراحي؟!

إنِّي بُليتُ بأربعٍ ما سُلِّطَتْ إلا لِعُظْمِ بليَّتي وشقائي

إبليسَ والدُّنيا ونفسي والهوى كيفَ الخلاصُ وكلُّهمْ أعدائي[1]

آهٍ من حُرقةِ الأحزان ولوعةِ الآلام!!!

آهٍ مِن قسوةِ الأنام وغِلَظِ طباعِهم!!

وآهٍ ثمَّ آهٍ من ثقل هذا الجهلِ المطبِق على صدري!!!

ولكنْ!!

لا وألفُ لا!!

لن أرضى بهذا الانحطاط.

لن أبقى غريقاً في مستنقع الجهلِ والظُّلمات!!

---

(١) تُنسَب إلى الإمام الشافعي.

وسـأبذُل قصارى جهدي لاسـتدراك مـا فاتني، فما يـزالُ في العمر بقيـةٌ، ومـا أزالُ فـي السادسـةِ والثلاثيـن مـن العمـر، وسأسـعى للَّحاقِ بالقطـار قبـل أن تغرُبَ شـمسُ حياتي.

سأضربُ في طول البلادِ وعَرضِها أنـالُ مـرادي أو أمـوتَ غـريـبـاً

فإنْ تَـلِـفـتْ نـفـسـي فـلله دَرُّها وإن سلِمَتْ كان الرُّجوعُ قريباً[1]

نعم!!

ربّما لن أسافرَ كما سافرتَ أيُّها الإمام الشافعي، ولكنِّي سأُبحرُ في عالم الكتب؛ لعلِّي أنفي عن نفسي صفةَ الجهل التي يصِمُني بها النَّاس، وأشقُّ لنفسي طريقاً إلى المجد والعُلا.

وبـدأ الوَقَّـادُ طريقاً جديـداً.. طريقـاً كان بعيداً عنـه كلَّ البعد.. إنَّه طريـق العلم.

لقـد أيقظتْـه هـذه الكلمةُ من رقـادٍ طويـلٍ كان غارقاً فيه منذ سـتٍّ وثلاثين سـنةً.

يا الله!!!

ما أبعدَ القطار عمَّن يريدُ أن يركبَه الآن!!!

نعم إنَّه لبعيدٌ بعيد، ولكنَّ الوصولَ إليه ليس مُحالاً، فما دام قلبي

---

(١) للإمام الشافعي.

ينبِضُ بالحياة فلا بدَّ أن أحاولَ اللَّحاقَ بالقطار قبلَ أن يصلَ إلى المحطّة الأخيرة.. وهي الموت.

إنَّني لا أدري متى أموت، ولكنّي لن أقبلَ بالموتِ قبلَ أوان الموت، وسأنطلقُ من جديد.

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِه وأجسامُهمْ قبلَ القبورِ قبورُ

وكلُّ امرئٍ لم يَحْيَ بالعلم ميِّتٌ وليس له حتى النُّشورِ نشور[1]

وصار الوقَّاد ملازماً للكتب لا يكادُ يفارقُها لحظةً من نهار، يحاولُ أن يعوِّضَها عن أيامِ الفراق التي كانت بينَه وبينَها.

ويحاولُ أن يردمَ الهُوَّةَ التي كانت منخسفةً بينَه وبينَ العلم.

وكان أكثرَ ما يستهويه كتبُ النحو، وخاصةً كتبَ ابن هشام.

كانت نفسُه تكلُّ أحياناً، ويَعتريها الملل، فيُذكِّرُها بما كانت عليه من قبل، ويَلوحُ أمام ناظريه ذاك الوصفُ الذي وصفه به ذلك الطّالب، **يا جاهل!!!**

فيدبُّ النشاطُ في عروقِه من جديد، وتشتعلُ جَذوة الحماسة.

فكانت حالُه كما قال الشاعر أبو العتاهية:

---

(١) للقاضي الماوردي.

يَقُولُ أُناسٌ لو نَعَتَّ لنا الهوى ووالله ما أدري لهُمْ كيف أَنعَتُ
سَقامٌ على جسميْ كثيْرٌ مُوَسَّعٌ ونَومٌ على عينِيْ قليلٌ مُفوَّتُ
إذا اشتدَّ ما بيْ كان أفضلَ حيلتِيْ لهُوضعَ كَفِّيْ فوقَ خدِّيْ وأَسكُتُ

نعم!!!

لقد وجد الوقَّاد هواه في الكتاب، فصار يعيشُ هذه الأمورَ من سهرٍ متواصلٍ وجِدٍّ وسعيٍ دَؤوبٍ، وهجرٍ للفِراش والطَّعام، وصبرٍ على ما يلاقيه الجسدُ من مشقَّةٍ وسهرٍ وجوعٍ وبرد.

والأعظمُ من ذلك نقصانُ المال؛ فقد كان يتقاضى بعضَ الجنيهات على عملِه وقَّاداً في الجامع الأزهر، وكانت بالكاد تسدُّ الحاجة، واليوم صار يتقاضى جنيهاتٍ قليلةً أقلَّ من تلك التي كان يتقاضاها وقَّاداً، وبعضَ الأرغفةِ ليقتاتَ بها خلال دراستِه.

لقد كان يعيشُ فقراً مدقعاً، لكنَّه اليوم انحطَّ إلى درَكَةٍ(١) أقلَّ من تلك الدَّركة التي كان فيها.

ولكنَّ هذا التعبَ والجوعَ والسهرَ حبيبٌ إلى النَّفس؛ لأنَّه يُبذَلُ لغايةٍ عُليا، ومطلبٍ عظيم.

---

(١) الدَّركات ضدُّ الدَّرَجات؛ فالدَّرجات هي المنازلُ إلى أعلى، والدَّرَكاتُ هي المنازل إلى أسفل.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

ويا ما أُحيلى هذا المطلبَ وتلك الغاية!!

ومـن تكـنِ العليـاءُ همَّـةَ نفسِـه فكلُّ الذي يلقـاه فيهـا محبَّبُ[1]

ومـازال الوقَّـاد يقـرأ ويقـرأ، ويُبحـر فـي عالـم الكتـب تـاركاً كلَّ شـيء وراء ظهـرِه، حتّـى أقام لنفسـه صرحـاً عاليا فـي العلـم، لا يبلغُه إلا القليـل مـن الرِّجال.

فقـد صـار يطوف علـى دروس العلم، فأخـذ علوم البيـان والبديع والنحـو والعربيـة والمنطـق عن الشـيخ شـمس الدين السّـخاوي وأبي العبَّاس الشـمني.

لكنَّ اهتمامَه كان منصبَّاً على النَّحو أكثرَ من غيرِه من العلوم، فتبحَّرَ فيه وفي علوم اللغة، فصار مدرِّساً لها، يَحضرُ دروسَه أكابرُ العلماء كابن الحاجب.

فقد صار الوقَّاد من أشهر علماء عصره، وألّفَ عدداً من الكتب تشهد له بعلوِّ كعبِه في تلك العلوم، (كالمقدمة الأزهرية في علم العربية)، و(مُوصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)، و(شرح الآجرومية)، و(التصريح بمضمون التوضيح)، في شرح أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، و(شرح البردة) و(شرح مقدمة الجزرية) في التجويد، و(الألغاز النحوية).

---

(١) لمحمود سامي البارودي.

وقد امتازتْ مؤلفّاتُه بالعناية بالخلاف النحوي وأثرِه في تغير المعاني والإعراب.

وصار يتناول آراءَ مَن قبلَه من العلماء والنحويين ويردُّ عليهم مصوِّباً وموجِّهاً.

وكانت له عناية بكتب ابن هشام أكثرَ من غيرها، فردَّ عليه في مواطن كثيرة، وابنُ هشام هو مَن هو.

يا سبحان الله!!!

لقد كان الوقَّاد لجهلِه لا يجرُؤ على الردِّ على طالبٍ صغيرٍ من الطلَبة؛ لأنَّه يرى البَونَ شاسعاً بينَه وبين هذا الطَّالب.

لكنَّه صار فيما بعد في منزلةٍ لا يستطيعُ الوصول إليها كثيرٌ من العلماء فضلاً عن الطّلاب.

وبقي على هذه الحال من التوسُّع في العلم وتعليم الطلاب حتى وافتْه المنيةُ وهو عائدٌ من الحجّ في سنِّ السابعةِ والسِّتين.

وحينَها كان الوقَّاد قد صار في العربة الأولى من عربات القطار، لا مِن ركَّابِه فحسب.

لقد كانت المسافات بينَه وبين هذه المنزلة طويلةً طويلة، ولم يكن يخطرُ على بال أحدٍ أن يكون لهذا **(الوقَّادِ)** شأنٌ يُذكرُ في يومٍ ما.

نعم!!!

لقد كان (وقَّاداً) في بداية أمره، بل في أكثر من نصف عمره، يُوقدُ القناديل في المسجد، لكنَّه غدا بعد ذلك (وقَّاداً) لأذهان الطلّاب بالعلم الذي يصبُّه فيها.

لقد قضى الشيخ خالد الأزهري ستةً وثلاثين عاماً يَتَخَوَّضُ في مستنقع الجهل، ويَغرقُ في بحرٍ لُجيٍّ من ظلماته.

لكنَّه صار (وقَّاداً) بحقٍّ، يضيء للسالكين دروبَ العلم والمعرفة.

فما أبْيَنَ الفرقَ بين ذاك الماضي وهذا الحاضر!!!

وما أشدَّ الاختلافَ بين حال (الوقَّاد) أمس وحالِه اليوم!!!

لقد كان شيئاً، فصار شيئاً آخرَ لم يكنْ يَظنُّ أن يصيرَه في يوم ما.

لقد كان نكرةً في مجتمعه، فصارَ من أعرفِ المعارفِ في زمنِه وفيما تلاه من أزمان.

لقد خلَّده العلمُ، ودوَّن اسمه على جبين المجد.

فيا مَن بلغَ من العمر ما بلغ (الوَقَّاد) وهو يظنُّ أنَّ القطار قد فات!!!

فجلس حزيناً على ما مضى، يائساً ممَّا يأتي! إنَّ القطارَ ما يزال على السكَّة.

نعم!!!

لقد قد قطع أشواطاً كثيرةً جدّاً، لكنَّه ما يزال على السكَّة.

لقـد ابتعـد جدّاً جـدّاً، لكـنَّ سـكَّتَه تدلُّك عليـه لـو أردت اللَّحاق بـه مـن جديد.

لقـد غـاب عن البصـر، لكـنَّ البصيرةَ تدلُّـك عليه وعلـى من ركبه قبلك .

فـإذا أردتَ اللَّحـاقَ بـه فامشِ على السـكَّةِ نفسِـها، ولا تغفُلْ عنها أو تَحِـدْ عن هـذا الطَّريق.

أوقِـدْ نـار العزيمـةِ فـي نفسـك، وأيقـظ المـاردَ الـذي طـال نومُه حتّـى يقـوم مـن جديد.

ثـمَّ انهض نهـوضَ مَن يبـدأُ حياةً جديـدة، ولا تلتفتْ إلـى الوراء؛ فقـد مضـى ذاك الزَّمن، وأنـت اليوم فـي زمن جديد.

ولكـنْ إذا وضعـتَ قدمَـك علـى الطَّريـق؛ فاحـذرْ أن تغفـل عنـه كـي لا تضيع.

خطـوةً يـا صاحبـيْ إنْ تَغْـفُلِ ألفَ ميـلٍ صـار بُعـدُ المنـزلِ

العالم الذي نال شهادة الطبِّ
وهو مدرِّسٌ في الكلية

الطَّبيب المفتي الشيخ
أبو اليسر عابدين

(إِنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أَجْنحتَها لطالبِ العِلمِ رضا بِمَا يَصنع)[1]

هـذا مـا أخبرنـا بـه رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلّم واصفـاً لنـا عظَمـةَ هـذا العلمِ، والمكانـة التي يتسـنَّمُها[2] طالبُ العلـم، حين يُتعبُ جسـدَه ونفسَـه لتحصيله.

ولكـنَّ كثيـراً منَّـا غافلـون عـن هـذه المَكرُمـة التـي جعلَهـا الله لطـلاب العلـم، والمنزلـة العظيمـة التـي يرقَون إليهـا، حيـن يبذلون ما يبذلـون، ويُكِـدُّون أبدانَهـم لبلوغهـا.

فالعلمُ دُرَّةٌ[3] في تاج حاملِه، ولؤلؤةٌ يعلو بها على أقرانه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، والطبراني في المعجم الكبير عن صفوان بن عسَّال رضي الله عنه. ورواه البيهقي في شعب الإيمان، وغيرُه عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) السنام: هو أعلى ظهر الجمل، والتَّسنُّم هو العلوُّ والارتفاع.

(٣) الدُّرَّةُ (بالضمّ) هي اللؤلؤة العظيمة، أمَّا إذا أُريدَ بها عصا السلطان التي يضرب بها فهي (الدِّرَّةُ) بالكسر، ويخلط كثيرٌ من الناس بين هذه وهذه.

(والعلم في الصِّغَر كالنَّقش في الحجر) كما يُقال.

وهـذه الحكمـةُ قـد فهمهـا النَّاسُ بشـكلٍ خاطـئ؛ فهي تدعـو إلى التعلُّـمِ باكـراً؛ لأنَّ ذهنَ الطِّفل يكونُ فارغاً، وليس مشـغولاً بهمِّ السـعيِ لتحصيـلِ لقمـة العيـش، فهنـاك مِـن أهلِـه مَـن يَكفيـه تلـك المؤونـة، ويحمـلُ هـمَّ طعامِـه وشـرابِه أكثـرَ من الطفـل نفسِـه، ويتعبُ ليسـتريحَ هـذا الطفـلُ، ويعيـشَ منعَّماً.

لكنَّها لا تدعو بحالٍ إلى ترك التعلُّم في الكِبَر؛ فالعلم لا يرتبط بسنٍّ معيَّنةٍ، وطالب العلم لا يُنزَعُ عنه هذا اللقب، ولو كان عظمُه قد رقَّ واشتعل رأسُه شيباً، بعد أن بلغ من الكِبَرِ عتيّاً.

وقد فهم الشيخ أبو اليسر عابدين هذه النقطة وبقي ملتزماً بها في جميع مراحل حياتِه، حتَّى إنَّ أخاه القاضي مرشد عابدين رآه مرةً يحملُ كتابَ (المسايرة) لابن الهمام، فسأله: إلى أين؟!

فقال الشيخ أبو اليُسر ـ وكانت سنُّه كبيرةً آنذاك ـ: إلى درس الشيخ بدر الدين الحسني؛ لأقرأ عليه قسماً من هذا الكتاب؛ لكي أظلَّ متّصفاً بصفة طالب العلم.

فاسـتغرب القاضـي مرشـد مـن فعـل أخيـه أبـو اليسـر[1] كيـف

(١) (أبو اليُسر) هو اسم الشيخ، فلذلك فهو لا يعامَل معاملة الأسماء الخمسة، وإنَّما يبقى على حالة واحدة (بسبب الحكاية)، وتُقدّر الحركات تقديراً عليه.

يذهب إلى حضور درسِ علمٍ وهو صاحبُ دروسٍ يحضرها كثيرٌ من الطلاب والعلماء.

ولكنَّ الذي يثير الاستغراب أكثر هو ما فعلَه الشيخ أبو اليسر بعد أن صار عالماً يُشار إليه بالبَنان، ومدرِّساً مشهوراً في الكليات والمساجد، حيث انتسب إلى كلية الطبّ في تلك السنّ المتأخرة.

كان يعطي الدُّروسَ في مساجد دمشقَ فيحضرُها نجباءُ الطّلاب كالشيخ علي الطَّنطاوي، والأستاذ النَّحْوي سعيد الأفغاني، وغيرِهم.

وقد غدا الشيخ أبو اليسر كذلك مدرِّساً في كلية الحقوق وكلية الشّريعة؛ حيث كان يدرِّسُ النحوَ وأصولَ الفقه لطلاب الكلّيتين.

وكان أيضاً فقيهاً حنفياً من الطِّراز الأول، مُتقِناً لحاشية ابن عابدين.

هذا الكتاب العظيم الذي ألّفَه أحدُ أجدادِه العلاّمة السيد محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز، فقيهُ الحنفية وعلاّمةُ الشام.

والذي يُعدُّ من أفضلِ كتب المذهب الحنفي.

وقد كان الشيخ أبو اليسر عارفاً بدقائق هذا الكتاب، مستحضراً لمسائله، قرأه عشَراتِ المرّات قراءةَ تدبُّرٍ لا قراءةَ تصفُّح.

ودرَّسه لكثيرٍ من الطلّاب، فحين كان يُسَأل عن أيِّ مسألةٍ فيه فإنَّه يجيب السائلَ وكأنَّه ينظر في الكتاب حين يُجيبه.

لقد وصل الشيخ أبو اليسر إلى غايةٍ يطمح إليها كثيرٌ من العلماء، فهو يدرِّسُ في كلّيتين من الكليّات، وله مجالسُه المعروفة في المساجد، فضلاً عن انتسابه إلى أسرة (عابدين)، وهي أسرةٌ مُعرِقةٌ في العلم.

فكان كما قال الشاعر:

إنَّ السَّـريَّ إذا ســرى فبنـفـسه وابنُ السَّرِيِّ إذا سـرى أسْراهُما

فقد جمع مجداً طارفاً إلى مجده التّليد، وأكمل بناءَ ما بدأ به أجداده من صروح العلم.

فإنَّ أباه هو الشيخ (أبو الخير عابدين)، الذي كان مفتياً عامّاً لسوريا ولبنان والأردن وفِلسطين، وقلَّدتْه الدولةُ العثمانية أعلى المراتب وهي (رتبة إستانبول).

لكنَّ كلَّ هذا المجد الذي لدى الشيخ أبو اليسر لم يمنعْه من تنفيذ فكرتِه التي خطرتْ بباله.

فقد اشتهى أن يَدْرسَ الطِّبَّ وهو في تلك السِّنِّ وتلك المنزلة من التّدريس في الكليّات والمساجد، وذلك الانشغالِ بالتَّدريس.

ولكنْ هيهاتَ هيهات!!!

فإنَّها لَغايةٌ تتقطَّعُ دونَها الرِّقاب، وتسقط على طريق الوصول إليها هممٌ عاليات.

إنَّها لصعبةٌ على طالب متفرِّغٍ لها تمام التفرُّغ، فكيف بمن هو مشغولٌ غالبَ أوقاتِ نهاره؟!

وهل من سبيل للوصول إليها؟!

وهل يُستطاعُ ذلك بعد أن رقَّ العظم، وكَلَّ الفِكر، واشتعل الرأس شيباً؟!!

هل يُستطاع بعد هذه المشاغل التي تُثقل كاهلَ حاملِها فتمنعُه من القيام فضلاً عن مواصلة السير؟!!

هل يُستطاع، وقد رحل ربيعُ العمر وأقبل خريفُه؟!!

وليتَ الأمرَ كان مقتصراً على حضور محاضرات كلية الطّب، والتحضير للامتحانات، بل الخَطبُ الأكبر هو أنَّ كليّةَ الطبّ كانت حديثةَ الولادة، والأطباء الذين بادروا بإنشائها كانوا خِرِّيجي فرنسا؛ فالدّراسة في كلية الطب ستكون باللغة الفرنسية.

وذلك قبل أن يقومَ مَجمع اللغة العربية في دمشق بتعريب مناهج الدراسة في الكلّيات.

فكيف إذاً سيدرسُ الشيخ أبو اليسر الطبَّ وهو لا يعرف شيئاً عن اللغة الفرنسية؟!!

وهل مجرُّد التمنِّي يحقِّقُ لصاحبه ما يصبو إليه؟!

وهل تمحو الأحلام الوردية شيئاً من قَتامةِ الواقع الرَّماديّ؟!

إنَّه يعيشُ على أرض الواقع، ولا يطيرُ في سماء الأحلام.

وهبْـه كان يُجيـدُ التَّحـدُّث باللغـة الفرنسـية، فـإنَّ ذلـك أيضـاً لن يُجديَـه نفعـاً؛ لأنّ لغـةَ الحديـث الدَّارجة لا تُقـارَن باللغـة العلمية التي يُـدرَّسُ الطِّـبُّ بها.

فصارت السدود مضاعفةً أمام تحقيق هذه الرغبة، فهو غيرُ متفرِّغٍ للدراسة؛ لأنَّه مشغولٌ بالتّدريس.

وكذلك فمن أصعب الأشياء على النّفس أن يكونَ المرءُ مدرِّساً في الكليّة، ثمَّ يَذهب فيحضر الدُّروس على أنّه طالب.

والأمر الأهمُّ من هذا وذاك حاجزُ اللغة، ويا لصعوبة حاجز اللغة!!!

فهل فات القطارُ يا تُرى؟!!

وهل تبخّرتْ هذه الأمنيّة كما يتبخّر الماء من الأرض إذا سطعتْ عليه شمسُ الظّهيرة؟!!

وهل ستُدفنُ هذه الأمنيّةُ في وَحَل المشاغل؛ ليستريح من وخَزات علوِّ الهمَّةِ التي تُقضُّ مضجعَه، وتطلب منه ألا يرضى بالواقع.

وإذا كانـتِ النُّفـوسُ كـبـاراً تعِبَتْ فـي مرادهـا الأجسـام

ولذلك فقد كان الشيخ أبو اليسر عابدين يعيشُ عذاباً شديداً؛ لأنَّه يرغب في تحقيق تلك الغاية، ووقتُه وحالُه لا يسمحان بذلك.

هو يرغبُ في ذلك، ولكنْ هل تكفي الرّغبةُ لتحقيق حلمِه؟!

وبعد معركةٍ طويلةٍ بينَ ما يرغبُ فيه الشيخ أبو اليسر، وبين ما عليه الواقع والحقيقة، قرّر أخيراً أن يُتعبَ جسدَه أكثرَ ليُريح نفسَه من عذابها.

وما نيلُ المطالب بالتمنِّي ولكنْ تُؤخَذ الدُّنيا غِلاباً

كما قال الشاعر أحمد شوقي، فلا بدَّ أن تكون تلك الأمانيُّ صادقة، ويصاحبَها عزمٌ على تنفيذ تلك الأمانيّ، وصبرٌ على ذلك العزم والتنفيذ.

فقد عزم الشيخ أبو اليسر على دراسة الطِّب، وبدأ من نقطة الصِّفر؛ حيث بدأ بدراسة اللغة الفرنسية، لا دراسةَ من يريدُ التحدُّثَ بها، بل دراسةً أكاديميةً تهيِّئُ صاحبَها لدخول كليّة الطِّبّ.

وكانت نفسُه تتعبُ أحياناً ممَّا حمَّلها إيّاه، فتطلب بعض الرَّاحة، لكنَّه يتذكَّر ما قاله البُوصيري:

والنفسُ كالطفلِ إن تهملهُ شَبَّ على حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

فاصـرفْ هواهـا وحـاذرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهوى ما تولَّى يُصْمِ أوْ يَصِمِ

وَراعِها وهْيَ في الأعمالِ سائِمةٌ ... وإنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِمِ

وخالفِ النَّفسَ والشيطانَ واعصِهما ... وإنْ هُما مَحَّضاكَ النُّصحَ فاتَّهمِ

وَلا تُطِعْ منهما خَصْماً وَلا حَكَماً ... فأنْتَ تَعْرِفُ كيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

فيحمِلُها على العزيمة ويترك الرُّخص، ويزُجُّ بها في معترك الدِّراسة لتعتادَ الشدائد.

وبعد مدةٍ من الزّمن كان الشيخ أبو اليسر قد تعلّمَ من اللغة الفرنسية ما يمكِّنُه من دخول كلية الطب.

يا الله!!!

كم كان القطارُ بعيداً!!!

بل كم كانت سكَّتُه بعيدة!!!

لقد كان تعلُّم اللغة الفرنسية كالحلم بالنسبة إليّ، وتعلُّمها بمنزلة السكّة التي يسير عليها القطار.

والآن صرتُ على السكّة، ولكنْ ما يزالُ القطارُ بعيداً والوصولُ إليه شبهَ مستحيل.

فهل أصلُ يوماً ما إليه؟!!

وهل أكونُ من ركَّابِه؟!!

يا نفس!!!

إنَّ هذا التعبَ سوف يمضي، لكنَّ أثرَه سيبقى، فكوني عوناً لي على بلوغ هذه الغاية.

وإن أبيتِ فسأُلجمُكِ بلجام الدّراسة والتَّحصيل حتّى أصل إلى تلك الغاية التي أصبو إليها.

وقرَّرَ الشيخ أبو اليسر دخول كليّةِ الطِّبِّ بعد تعلُّمه للغة الفرنسية، فكان يذهب إلى كليتي الشريعة والحقوق معلِّماً ومدرِّساً، فإذا انتهى من محاضراتِه أسرعَ السَّيرَ إلى كليّة الطِّبِّ ليحضُرَ فيها المحاضرات.

فصار لِزاماً عليه أن يكونَ مقسَّمَ التفكيرِ وموزَّعَ الهوى.

فإن كان مدرِّساً فعليه أن يُحضِّرَ المحاضرات ويكونَ حازماً لكي لا يتفلَّتَ أمرُ قاعةِ الدَّرسِ من بين يديه.

ثمَّ إذا صار وقتُ محاضرات الطبِّ فعليه أن ينسى أنَّه كان قبلَ قليلٍ مدرِّساً، ليصبحَ الآنَ طالباً كبقية الطّلاب، يتلقَّى المحاضرات، ويُمتَحنُ فيما يتلقَّاه من معلومات.

يا للعجب!!!

أيُعقَلُ أن أصبرَ على هذه الحال طويلاً؟!!

ألا يكفيني ما أنا فيه من تعب تحضيرِ المحاضرات التي ألقيها على طلّابي حتى أضيفَ إلى ذلك تعبَ حضورِ محاضرات الطِّبِّ ودراسة تلك المحاضرات، وخوض الامتحان فيها؟!!

إنَّني أرى أنَّ ما أنا فيه هو نجاحٌ بحدِّ ذاتِه.

فلماذا أضيِّقُ على نفسي وأحرمُها من الراحة لكي أدرسَ الطِّبّ؟!!

نعم!!!

إنَّه لتَعب.. ولكنَّه تعبٌ لذيذٌ تَستروِحُ النفسُ في تجرُّعِه، وتَسعَدُ في خوضِ غِمارِه؛ لأنَّ وراءَه راحةً طويلة.

راحةً.. لا تُدرَك إلا بعد أن يُخاضَ إليها ذاك التعبُ خوضاً.

ويبقى الشيخ أبو اليُسر متردِّداً بين هذين الأمرين، لكنَّه يصبِّرُ نفسَه ويقولُ لها:

يا نفس!!

ها قد مضى قسمٌ كبيرٌ من هذا التّعب ولم يبقَ إلا القليل، فسأُصبِّرُ جسدي على احتمال ذلك.

فيا جسدي!

اصبرْ قليلاً فبعدَ العُسر تيسيرُ وكلُّ أمرٍ له حَلٌّ وتدبيرُ

ثمَّ إنّي لستُ وحدي في هذا الطريق.

نعم!!

إنَّ السَّالكين فيه قليل، ولكنَّهم قد ركبوا القطار.. بل قد صاروا قُوَّادَه وموجِّهي دفتِه.

وسأحجز[1] لنفسي مكاناً بين هؤلاء الأفذاذ.

... وظلَّ الشيخ أبو اليسر على تلك الحال من علوِّ الهمّة واتِّقاد العزيمة، حتّى تخرَّج في كلية الطبّ ونال شهادتَها.

ولكنَّه لم يكتفِ بنيل الشهادة، والاستراحة بعد ذلك العناء المبذول.

بل افتَتَحَ عيادةً وصار يعالج النّاسَ فيها إضافةً إلى عمله في التَّدريس.

بل إنَّه فوق ذلك كان يعطي دروساً في المسجد في غالب أوقات الأسبوع.

---

(١) الحَجزُ في الأصل: هو الفصلُ بين الشيئين، أو المتقاتلَين، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾. وقولهُ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾.

ومن استعمالات هذا الفعل المحدثة التي لم ترد في المعاجم قولُهم: حجز مقعداً في الطائرة أو الحافلة.

ولعلَّ هذا المعنى يعود إلى (المنع) أيضاً؛ لأنَّ المسافر حين يحجز مقعداً بدفع ثمن تذكرتِه، فإنَّه (يمنعُ) غيرَه من الجلوس فيه؛ أي: يحجزُه عن ذلك المقعد.

ومع هذا فقد استطاع أن يؤلفَ عدداً لا بأسَ به من الكتب القيمة في الفقه واللغة والتاريخ والأدب والنحو والتفسير، تزيد على ثلاثين مؤلّفاً، كتبها رغمَ انشغالِه الشديد بالتدريس ومعالجةِ النّاس.

فمن هذه المؤلفات (أغاليطُ المؤرخين)، (لم سُمي؟)، (رسالة في القراءة والقراءات)، (رسالة الأوراد)، (أصول الفقه)، (كتاب الفرائض)، (أحكام الوصايا)، (إرشادات الأنام إلى أحكام الصيام)، (أكاذيب مسيلمة الكذاب)، (مختصر أحكام الزواج)، و(الفوائد الجَليّة لأرباب النفوس العَليّة).

ولو نظرنا في هذه العناوين لرأينا التنوعَ فيها وفي الموضوعات التي تعالجُها؛ ممَّا يدلُّ على سعة اطِّلاع هذا الرجل وإتقانِه لعدة علوم إضافةً إلى الفقه.

ورغمَ انشغاله بالتأليف فقد ظلَّ مواظباً على عددٍ لا بأس به من الدروسِ، يلقيها في المساجد والكليّات، وعلى معالجة الناس في عيادته حوالَي ثلاثين عاماً.

ثمَّ صار مفتياً عامَّاً لسوريا، فاستمرَّ في دروسه ومحاضراتِه، لكنَّه انشغلَ عن مهنة الطبِّ.

وقام بمهمة الإفتاء خير قيام.

وفي يومٍ من أيام عامِ ١٩٦٣ بعد الوحدة بين سوريا ومصر، كان جمال عبد الناصر قد أصدر قراراً بتأميم المؤسسات والشّركات.

وطلب جمال عبد الناصر من المفتي الشيخ أبو اليسر عابدين إصدارَ فتوى بذلك لإضفاء الشرعية على هذا العمل، وقال له: أريد منك فتوى بذلك يا شيخَنا كما فعل المفتي عندنا في مصر.

لكنَّه رفض ذلك وقال له: **(ليست لك هذه الفتوى، ووالله لا أبيعُ ديني بدنياي ولا بدنيا غيري)**.

فعُزِل من منصب الإفتاء، لكنَّه لم يَأْسَ عليه، ولم يحزنْ على فواتِه؛ فالمساجدُ ما تزال مفتوحة، والكليات ما تزال قائمة.

وإن ضاق الأمرُ فمُنِع من كلِّ هذا فعيادتُه ما تزال هناك في مكانها، يستطيعُ أن يمارسَ فيها مهنتَه بشهادته التي نالها بهمّته العالية.

وبعد!!!

فإنَّ الشيخ أبو اليسر عابدين حُجةٌ على كلِّ مَن وصل الأربعين أو أقلَّ من ذلك أو أكثر، وهو يظنُّ أنَّ قطارَ العلم قد فات، فجلس يبتغي الراحةَ بعد أن ظنَّ أنَّه لا مجالَ بعد ذلك للتغيير، وألقى عصا التَّسيار، فهو لا يريدُ حملَها من جديد، ولا مواصلةَ السير، ثمَّ جلس يتحسَّر على فَوات القطار، ويبكي حسرةً وندماً، ويلطِم خدّيه حزناً على فواتِه.

إنَّ القطارَ لمَّا يفُتْ...

وإنَّ اللَّحاقَ به مقدورٌ عليه.

فعملُ الشيخ أبو اليسر عابدين حجّةٌ على مَن رضي بوظيفة صغيرةٍ فألجمتْه هذه الوظيفة عن قول كلمة الحق خوفاً من فواتِها.

إنَّ الشيخ أبو اليسر قد أخذ بأسباب الدُّنيا ونالَ شهادةَ الطِّبِّ يومَ كان مدرِّساً غيرَ محتاجٍ إليها.

لكنَّه حين عُزل عن الإفتاء وجدَ تلكَ الشهادةَ حاضرةً بين يديه، ولو شاء لاستغنى بها عن ذلك المنصب.

فيا أخي القارئ!

إنَّ الطريقَ أمامَك مفتوح.

ولا يمنعُني ولا يمنعُك من سلوكِه إلا برودُ الهِمّةِ وفُتور العزيمة، ولو أوقدنا في أنفسِنا نارَ العزيمةَ، وأذكينا روح الإرادة لوصلْنا إلى ما وصل إليه الشيخ أبو اليسر عابدين.

فإن لم نكن مثلَه فلا أقلَّ من أن نسعى لتحصيل العلم أو الشهادة لنستغنيَ بهما عن الحاجة إلى مَن لا نستطيع التكلُّمَ بالحقِّ أمامَه.

ولنلتزمْ بوصية النبيِّ ﷺ: **(عليك بالإياس ممَّا في أيدي النَّاس)**.

وأكثرُ ما يثبِّتُ المرءَ في هذا الخِيار هو أن يحصِّلَ ما يُعينُه على الاستغناء عن النَّاس من شهادة أو علمٍ أو صنعة.

ولا يكون ذلك براحة الجسد، بل لا بدَّ من إتعاب الجسد لتستريح النّفس.

فلا تقلْ: إنَّ القطار قد فات.

إنَّ القطارَ موجود، لكنَّ ما فاتنا هو علوُّ الهمَّةِ، ووضوح الهدف والغاية، والسَّعيُ إلى تحقيق هذا الهدف، والصَّبرُ على ما يصيبنا أثناء هذا السَّعي.

فلا بدَّ من بذل المستطاع، والأخذ بجميع الأسباب الدُّنيوية، ثمَّ الاتِّكال على مسبِّب الأسباب الذي إذا أراد شيئاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

وبذلك نلحقُ القطار ونحجزُ لنا مكاناً فيه بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

إذا لم يكنْ عونٌ من الله للفتى فأولُ ما يَجني عليه اجتهادُه

المرأة الأمية
التي حفظت القرآن بعدَ الثمانين

حفظتِ القرآنَ بعد الثَّمانين

المسنَّة نعيمة وهبي

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

كثيراً ما كانت المسنَّة الفِلَسطينية، الحاجّة نعيمة وهبي تردِدُ هذه الآيةَ في حياتِها.

هي لم تكن من المسرفين على نفسها في معصية، بل كانت من المصلِّيات الصَّائمات.

لكنَّ إسرافَها على نفسها كان من نوعٍ آخر.

إنَّه الإسراف في ترك التعلُّم، إذْ لم يسعِفْها الحظُّ بتلقِّي العلم؛ فقد وُلِدت في عامِ ١٩٣١م، في زمنٍ لم يكنِ الأهالي فيه يُلقونَ كثيرَ بالٍ إلى التعليم، ولا يُولُونه إلا الأقلَّ من اهتمامِهم.

هذا بالنِّسبة إلى الذُّكور من أبنائِهم، أمَّا بالنسبةِ إلى الإناثِ فكان مِن شبهِ المحال دخولُ فتاةٍ إلى المدرسة، أو إتمامُها الدراسةَ إن هي دخلتْ.

وقد عاشتْ الحاجَّة نعيمة وهبي في هذه المدَّة من القرنِ الماضي، ولم تكنْ أسرتُها بِدْعاً بين بقيةِ الأسرِ التي حولَها، فخرجتِ الطفلةُ نعيمة من مدرستِها قبل أن تتجاوزَ مرحلةَ الصفِّ الثاني الابتدائي.

فلم تتعدَّ خطَّ الأميَّةِ؛ حيث لم تُفدْها تلك السنةُ في تعلُّمِ القراءةِ والكتابة.

وبقيت رغبةُ التعلمِ قائمةً في نفسِها، ولكنْ (ليتَ) وهل تنفعَ شيئاً (ليت).

وهل ستغيِّرُ الأمانيُّ شيئاً من الواقع؟!!

هل ستعيدُ الأحلامُ تلك السنين التي مضتْ؟!!

هل ستُبعثُ الأيامُ الماضية مِن مَرقدَها من أجل اغتنام أوقاتِها مرةً ثانية؟!!

لقد فاتها قطارُ التَّعليم، ومرَّتْ سنواتٌ طويلةٌ على فَواتِه، فقد دخلتْ هذه الفتاةُ في معتركِ الحياة، كباقي الفتياتِ ممَّنْ حولَها، كثيرةٌ مِنْ حولِهنَّ المشاغل، فما بينَ أعمالِ المنزلِ إلى العملِ في الحقلِ تتقطَّعُ الأعمار، فيُقنِعُ صاحبُها نفسَه أنَّه معذورٌ؛ لأنَّه لا يملِكُ وقتاً كافياً للَّحاقِ بالقطارِ الذي فاتَه، ويُريحُ ضميرَه من الوخَزاتِ التي تنتابُه بينَ الفَينةِ والأخرى، بأنَّه مازال في العمرِ بقيةٌ، وأنَّ الحياةَ لمَّا

تنتـهِ، وبـأنَّ القطارَ لـم يختفِ تماماً عن العيـون، وأنَّ إغمـاضَ المرءِ عينَه عنـه لا يُعفيـهِ من مسـؤوليةِ البحـثِ عـن أيِّ دليلٍ يدلُّـه عليه.

وكانتْ هذه المرأةُ تخاطبُ نفسَها حين ترى غيرَها من بناتِ حوَاء يقرأنَ بعضَ ما يقعُ في أيديهنَّ، فتقول:

ما الذي يميزُهنَّ عنِّي يا ترى؟!

هنَّ بشرٌ وأنا بشر.

لديهنَّ ظروفُهنَّ الصعبةُ كما لديَّ أنا.

وعندَّهنَّ أعمالٌ كأعمالي، بل ربَّما أكثرُ من أعمالي.

لكنَّ هذه التَّساؤلاتِ تضيعُ في زحمةِ مشاغلِ الحياة، وتكادُ تُنسى لولا تلك الرَّغبةُ في نفسِ هذه الفتاةِ بالتعلُّم.

الرَّغبةُ!!!

جميـلٌ أن يكـونَ لـدى الإنسـانِ رغبـةٌ فـي عمـلِ شـيءٍ مـا، لكنَّ هـذه الرَّغبـةَ لا تنفـع إن لـم تصاحبْهـا إرادةٌ وعـزمٌ وسـعيٌ من صاحب هـذه الرَّغبة.

وكـم مِن رغبـةٍ ظلَّتْ حبيسـةَ الصُّـدور، ودُفِنـتْ مـع صاحبِها في قبـرِه لأنَّه لـم يسـعَ لها سـعيَها!!

وكم من أمنيَّةٍ عفا عليها غبارُ النِّسيان، وغرِقتْ في مستنقعِ التَّكاسُلِ عن القيامِ لها حقَّ القيام!!!

وكم من حلمٍ كانت جذوتُه تتَّقد في نفس صاحبِه، لكنَّ تلك الجذوةَ انطفأتْ، لأنَّ صاحبَه نام عن السعي من أجل تحقيق ذلك الحلم؟!!

وقد كادت الرغبةُ في نفسِ هذه الفتاة تموت، وتنطفِئُ جذوتُها لولا بصيصٌ كان يُعيدُ الأملَ إلى نفسِها بين الفَينة والأخرى.

ومرَّتِ الأيامُ وتزوَّجت نعيمة وهبي، وتقاسمتْ مع زوجِها همومَ الحياة ومشاغلَها، وكلَّما مرَّ يومٌ زادتِ المشاغلُ أكثر، وقلَّتْ أوقاتُ الفراغ.

وشاء اللهُ تعالى ألا تُرزقَ بالأولاد، فعاشتْ مع زوجِها وحيدَين، وكبِرَ الزَّوجانِ وكبِرتْ معهما الهمومُ، لا معينَ لهما على نوائبِ الدَّهرِ من الأولادِ.

ورغمَ تطاولِ الأيامِ ما زالتِ الرغبةُ في التعلُّمِ ماثلةً في نفسِ الحاجَّة نعيمة وهبي، فما يزالُ في النَّفسِ قدرةٌ على اللَحاقِ بالقطار رغمَ ابتعادِه كثيراً، وما على الراغبِ إلا أن يسيرَ في نفسِ سكةِ ذلك القطار لكي يصلَ إلى هدفِه ولو متأخراً؛ فلأَن يصلَ متأخراً خيرٌ له من ألا يصلَ أبداً.

وعندما بلغت الحاجة نعيمة سنَّ الثمانين توفيَ زوجُها، وبقيتْ وحيدةً في البيت، بين أربعةِ جدرانٍ صامتةٍ تزيدُ همَّ المهمومِ، وتُذكي النار في جروح المكلوم.

فعاودتْها رغبتُها القديمة، ولم تسأمْ كما سئِمَ زهير بن أبي سُلمى الذي قال:

سئِمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعِشْ ثمانينَ حولاً ـ لا أبالكَ ـ يسأمِ

بل إنَّ الرغبةَ التي في نفسِها خالطتْ دمَها ولحمَها؛ فصارتْ تشعرُ بأنَّها تتنفسُها مع الهواء الذي تستنشقُه.

وما الذي يمنعُها من ذلك؟!!

وما الذي يقفُ سدَّاً في وجهها عن السعي لتحقيق تلك الرغبة؟!!

ولماذا تقف مكتوفةَ اليدين وها هو الطريقُ أمامَها ينادي على السَّالكين أن هلمُّوا إليَّ، واسلكوني؛ فليسَ عليَّ حواجزُ تمنعُكم من سلوكي، وليس هناك بوَّاباتٌ تطلبُ من السالكِ هُويَّةً لتعرفَ جنسَه وسنَّه ودِينَه.

فالطريقُ مفتوحٌ ليلَ نهار، صيفاً شتاءً.

وقرَّرتْ الحاجّة نعيمة وهبي أن تضعَ أول قدمٍ لها في الطريق.

إنَّ القطارَ لم يفُتْني، ها هو يبدو أمامي، ولا بدَّ أن أمدَّ يدي لأتعلقَ به، وأحجزَ ليَ مقعداً فيه.

وأرادتْ أن تحفظَ القرآنَ.

ولكنْ كيفَ السَّبيلُ إلى ذلك وهي لا تتذكَّرُ من القراءةِ والكتابةِ إلا رسمَ بعضِ الحروف؛ فقد مرَّ على آخرِ درسٍ أخذتْه أربعٌ وسبعونَ سنة.

يا الله!!!

إنَّها لَمسافةٌ طويلةٌ طويلة.

إنَّها ثلاثةُ أرباع القرن.

لقد وُلد أناسٌ ومات أناسٌ، وسقطت دولٌ وقامت دولٌ في هذا الوقت.

ولم يبقَ شيءٌ على حالِه ممَّا كنتُ أعهده.

ولكنِّي عزمتُ على ركوبِ القطار، ولن أتراجعَ قبلَ أن أحجزَ لي مقعداً فيه.

وبدأت الحاجة نعيمة تتردَّدُ على بعضِ المساجدِ في مدينة الخليل، وبدأتْ تقرأ القرآن كما لو أنَّها طالبةٌ جديدةٌ في المدرسة.

لم تتكاسل، ولم تخجلْ، ولكنَّها واظبتْ على حضور الدُّروس حتّى تعلَّمت القراءة.

وحينَ أتقنتِ القراءة قيل لها: لا بدَّ من إتقانِ أحكامِ التَّجويدِ قبلَ الشُّروعِ في حفظِ كتابِ الله.

والأخذُ بالتَّجويدِ حتـمٌ لازمُ مَـن لـم يُـجَـوِّدِ الْقُـرآنَ آثِـمُ[1]

وصـارتْ تتعلـمُ التَّجويـدَ علـى يـدِ أنـاسٍ فـي سـنِّ أحفادِهـا لو كان لهـا أحفـاد، لـم تقلْ لنفسِـها: إنَّ ذلـك لا يليقُ بي بعـد أن جاوزتُ الثَّمانيـن، فالعلـمُ لا يرتبـطُ بسـنٍّ معينة، ومـن ملكَه حاز شـرفَ تعليمِه لمـن يحتـاجُ إليه.

وظلَّتِ الحاجَّةُ نعيمة لمدةِ سنتين تتعلَّمُ أحكامَ التَّجويد، ثمَّ شرعتْ في حفظِ القرآن، لم يمنعْها كِبَرُ السنِّ عن ذلك؛ فقد وجدتْ سلوتَها في القرآن، ومَن وجدَ اللهَ فماذا فقد، ومَن فقدَ اللهَ فماذا وجد؟!!!

فقد أصبحت تشعرُ بسعادةٍ عارمةٍ وهي تخاطبُ ربَّها وتناجيه دون حُجَّابٍ يمنعونَها من الدُّخول إلا بطلبٍ رسميٍّ.

وصارتْ تشعرُ بأنَّ همَّتَها همةُ فتاةٍ في العشرين من العمر.

وها قد ركبتْ الحاجَّة نعيمة في القطار الذي كانت تظنُّ أنَّه فاتَها، بل لقد أصبحتْ من قُوَّادِه، ولم تكتفِ بحجزِ مقعدٍ لها.

---

(١) من المنظومة الجزَرية.

(**لقد وُلدتُ من جديد**)[1]، قالت الحاجة نعيمة، هذه العبارة في يوم تكريمِها، بعد أن أتمَّتْ حفظَ القرآنِ الكريمِ كاملاً.

لقد استطاعت الحاجة نعيمة أن تدركَ الرَّكْبَ، وأن تنافسَ على الدرجات الأولى، بعد أن ظنَّتْ أنَّ القطارَ قد فاتَها.

ولـم تنـلْ ذلكَ إلا حيـنَ أقنعتْ نفسَـها أنَّها قادرةٌ علـى ذلك، وأنَّ الطريـقَ الطويـلَ لا يكـونُ طويلاً إلا قبـلَ سـلوكِه، لكنَّه يبـدأُ بالتَّقاصر تدريجيـاً، حيـن يضعُ السـالكُ أولَ قـدمٍ له فيه.

فيا مَن ظنَّ أنَّ القطارَ قد فات!

وأنَّ حظَّه في اللحاق به قد مات.

ويـا مـن قعـدَ عـن التعلُّـم لأنَّـه رأى نفسَـه قـد جـاوز الثلاثين أو أكثـرَ بقليل!!

ويـا مـن رضـي بالجهـل خِدْنـاً ورفيقـاً لأنَّـه تأخـر قليـلاً عـن مصاحبـة العلـم!!

ويا مَن رفع الرايةَ البيضاء مستسلماً من متابعة مشوارٍ يحتاج منه إلى قليل من الجهد والعزم!!

---

(١) من كلام الحاجة نعيمة.

انهض من رُقادِكَ وابدأِ مشوارَك من جديد؛ فلا بدَّ أن تصلَ في يومٍ ما إلى نهاية الطريق.

ولا يمنعنَّكَ التعبُ والسهرُ من متابعة الطَّريق، فإنَّ التعبَ لا بدَّ أن تعقبه راحةٌ تُنسيه، وإنَّ السهرَ لا بدَّ له من نومٍ يمحو آثارَه.

وكنْ كما قال القائل:

دببـتُ للمجدِ والسَّـاعونَ قد بلغُوا ... جــهدَ النُّفُوسِ وألقَـوا دونَه الأُزُرا

وكابدوا الـمجدَ حتَّى ملَّ أكثَرُهُـمْ ... وعـانـقَ المجدَ منْ أوفى ومن صَبَرَا

لا تحسبِ المجدَ تـمـراً أنـتَ آكـلُـه ... لن تبلغَ المجدَ حتَّى تلعَقَ الصَّبِرا[1]

(١) لشاعر من بني أسد، أوردها أبو تمَّام في الحماسة.

المعلّم الفقير
الذي صار من أغنياء العالم

المليادرير جاك ما

(مؤسس وصاحب موقع علي بابا)

فيَـومٌ علينـا ويَـــومٌ لـنــا   ويَومٌ نُسـاءُ ويَـومٌ نُسَـرٌّ[1]

هـذا هو شـأنُ الحيـاةِ الدُّنيـا، صعـودٌ وهبـوط، وإقـدامٌ وإحجام، وسقوطٌ وقيام.

يصعـدُ الإنسـانُ فيهـا جبـالاً مـن الصِّعـاب، وتَعترضُه فـي طريقِه العقَبـات، وتتخطَّفُـه مـن جوانـبِ الطَّريـقِ مخاطـرُ وأهوال.

لا يسيرُ دائماً في طريقٍ مفروشٍ بالورد، فقد يطأُ الأشواكَ أحياناً، وقد تُدمي الحجارةُ رجليه، فيسيلُ منهما دمٌ يرسمُ آثاراً على ذلك الطَّريق، فيستصعبُ في البدايةِ ما يلقى.

وقـد ينعطـفُ عـن الطَّريـقِ يمينـاً أو شِـمالاً، فيقـفُ عنـدَ إحـدى محطَّاتِـه ويرضـى بالوقـوفِ هنـاك، ولا تطمحُ عينُـه إلى أبعـدَ مِن تلك المحطَّة.

---

(١) للنَّمِر بن تَولَب.

وقد يعودُ من حيث بدأَ الطَّريق إذا آثرَ السَّلامةَ وأبتْ نفسُه أن تبذُلَ شيئاً هيِّناً من أجل شيءٍ عظيم.

حُبُّ السَّلامةِ يَثْني عزمَ صاحبِه ... عن المعالي ويُغري المرءَ بالكسلِ[1]

لكنَّ هناكَ أناساً أكملوا طريقَهم، وصارتِ الصِّعابُ عندَهم مستطابةً، والعوائقُ لذيذةً؛ لأنَّها تُشعرهم بعِظَمِ الجهدِ الذي يبذلونَه من أجل الوصولِ إلى الغايةِ التي تصبو إليها نفوسُهم.

ولو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ ... كفاني ولم أطلُبْ قليلٌ من المالِ

ولكنَّما أسعى لمجدٍ مؤثَّلٍ ... وقد يدركُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي[2]

وهكذا كان حالُ الملياردير الصِّيني (جاك ما)، مؤسسِ موقعِ (علي بابا) الإلكتروني.

كان هذا الرجلُ غَرَضاً[3] للمصائب والنَّوائب، كأنَّها جعلتْ منه هدفاً تصوِّبُ إليه سهامَها، حتى صارتْ حالُه كحال المتنبِّي حين قال:

رماني الدَّهرُ بالأرْزاءِ حتَّى ... فؤادي في غِشاءٍ من نِبالِ

---

(١) للطَّغرائي، من قصيدة لامية العجَم.

(٢) لامرئ القيس.

(٣) الغرَض: الهدف.

فصِـرْتُ إذا أصابتْنـي سِـهامٌ تكسّـرتِ النِّصالُ علـى النِّصالِ
وهـانَ فمـا أُبالـي بالرَّزايـا لأنّـي مـا انتفَعـتُ بـأنْ أُبالـي

لكنَّ اليأسَ لم يعرف إلى قلبِه طريقاً، وقطار النَّجاحِ كان هدفاً قد وضعه نصبَ عينيه.

وكم من مرةٍ حاولَ فيها ركوبَ هذا القطارِ، لكنَّ محاولتَه باءتْ بالفشَلِ؟!!

وكم سقطَ وهو يسعى للوصولِ إلى ذلك القطارِ، لكنَّه كان يقومُ من سَقطتِه، وينفضُ عن نفسِه غبارَ الخمول، وينطلقُ من جديد؟!!

وكـم سـار في طريـقٍ وحين وصلَ إلـى نهايتِه وجَده مسـدوداً، فلم يلطِـمْ ولـم يبكِ علـى الوقتِ الـذي أضاعَه في سـلوكِ هـذا الطَّريق، بل فـرِحَ لأنَّـه كسَـبَ خبراتٍ جديـدةً، وعـرَفَ طرقاً للفشـلِ سـيجتنبُها في المـراتِ القادمة.

فقد وُلِد (جاك ما) في أسرةٍ فقيرةٍ في مدينة (هانغتشو) بمقاطعةِ (تشيجانغ) الصِّينية.

وكانتِ الصِّينُ وقتَها تعيشُ في عُزلةٍ تامَّةٍ عن العالمِ الغربيِّ، بسبب التَّناحرِ بين معسكري الشِّيوعيةِ والرَّأسمالية.

فقد كانت الصِّينُ في الصفِ الشِّيوعي، فكانَ بينَها وبينَ الغربِ سورٌ عظيمٌ جدًّاً أعظمُ من سورِها المبنيِّ بالحجارة، فلا يكادُ مَن وراء السور يعرفون شيئاً عن عالم الغرب.

وقد درسَ (جاك ما) المرحلةَ الابتدائيةَ في مِنطقتِه، وبدأت المعاناةُ معه منذ ذلك الوقت، حيث رسب مرتين في المرحلة الابتدائية.

ثمَّ دخلَ المرحلةَ الإعدادية، متأخراً عن زملائه سنتين، ورسبَ أيضاً في المرحلةِ الإعداديةِ ثلاثَ مرات.

فهل تراه شعرَ بالفشل؟!!

إنَّ النَّاظرَ إلى حالتِه يرى أنَّ القطارَ قد ابتعد عنه مسافةً طويلة.

إنَّها خمسُ سنوات، لا شهراً ولا شهرين.

لقد صارتِ الشُّقةُ[1] بعيدةً جدًّاً.

وابتعدَ القطار كثيراً، ولكنَّه لم يفُتْ وبالعزم والجِدِّ سوف يُلحَق.

وصار (جاك ما) بعد ذلك يركبُ درَّاجتَه الهوائية كلَّ صباحٍ لمدَّة ٤٥ دقيقةً ذَهاباً ومثلها إياباً متوجِّهاً إلى فندقٍ في مدينتِه يأتي إليه السُّيَّاحُ الأجانب.

---

(١) الشُّقة: هي المسافة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.

فكان يذهب إلى الفندق ويعرِضُ على نزلائه خِدْماتٍ مجانيةً بُغيةَ تعلُّمِ اللغةِ الإنكليزيةِ بشكلٍ عمليّ.

وظلَّ على هذه الحال ثماني سنواتٍ لا يتخلَّفُ عن هذا المِشوارِ[1] لا في صيفٍ ولا في شتاء.

حتى حذِقَ اللغةَ الإنكليزيةَ بشكلٍ عمليٍّ.

ورغمَ إتقانِه للغة الإنكليزية فقد ظلَّ ثلاثَ سنواتٍ يبحثُ عن جامعةٍ تقبلُ به، لكنَّ محاولاتِه كلَّها باءتْ بالفشل.

فقد أرسلَ أوراقَهَ إلى جامعة (هارفارد) ورُفِض، ثمَّ أرسلَها ورُفِض، ثمَّ أرسلها ورُفض.

عشْرَ مراتٍ يرسل إليهم أوراقَه ويرفضونَه، فكأنَّه أحدُ قطبي المغناطيس، وتلك الجامعة هي القطب الآخر، فهما متنافرانِ أبداً، لا يلتقيانِ مهما حاول المحاولُ تقريبَهما.

وقد كان (جاك ما) يعلمُ أنَّه سيُرفض من الجامعة، لكنَّه أرادَ أن يُبليَ عذراً ولا يندمَ في قابلِ الأيام على فواتِ أمرٍ بسبب تقصيرٍ منه.

---

(١) المِشوار: هو المكان الذي تُجْرى فِيهِ الدَّابَّة حِين تُعرَضُ للبيع حيث يُقبَلُ بها ويُدبَرُ ليُعرفَ جريُها، وصار النَّاسُ حديثاً يُطلقون هذه الكلمة على المسافة التي يقطعُها الإنسان، ولعلَّ فيها وجهاً.

ثمَّ قال لنفسه: قد أكونُ رُفضتُ في هذه الجامعة، لكن!!!

لا بدَّ أن يأتي يومٌ أُدعى فيهِ مدرِّساً لألقي دروساً فيها عن أساليب النَّجاح، ولن يطولَ ذاك الزَّمن، فإنِّي أراه، وأكاد ألمسه بيديَّ هاتين.

فلم يقعدْ عن متابعةِ الطَّريق، ولم يندم على ما ضاع من عمره في البحث عن فرصِ دخول الجامعة.

بل قرَّر أن يدخلَ مدرسةَ الحياة، حيث بدأ بالبحث عن عملٍ يُدرُّ عليه مالاً، ويَكفُّ وجهَه عن النَّاس.

لكنَّ المصائبَ عادتْ إليه من جديد، وكأنَّها قطعتْ على نفسِها عهداً ألا تفارقَ هذا الرَّجل، فهي تبتعدُ عنه قليلاً، ثمَّ تشتاقُ إليه فتعودُ، وكأنَّ خيطاً معقوداً بينها وبينَه.

وقد اعتادَ (جاك ما) هذا الأمر وما عاد يبالي بكثرة تلك المصائب وتواليها عليه، بل صار يستغربُ انفساحَ الأمرِ الذي يسعى إليه من أولِ محاولة.

إذا اعتـاد الفتـى خـوضَ المنايا فأهـوَنُ مـا يمـرُّ بـه الوحـولُ[1]

فبعدَ أن نفضَ يديه من الجامعات التي أغلقتْ أبوابَها دونَه، طرقَ بابَ البحثِ عن وظيفة.

---

(١) للمتنبِّي.

وكلَّما طرقَ باباً وجدَه مغلقاً، وربَّما وجدَ على بعضِ تلك الأبوابِ حُرَّاساً غِلاظاً يمنعونَه أصلاً من الاقتراب.

لـم تكنْ وظيفـةً أو اثنتيـن، فقد تقدَّمَ إلـى ثلاثينَ وظيفـةً ولم يحظَ منها بطائل.

تقدَّمَ إلى قسمِ الشرطةِ في مدينتِه حين أعلنوا حاجتَهم إلى منتسبين، وكان المتقدِّمونَ أربعةً و(جاك ما) خامسَهم، فقُبلوا جميعاً إلا هو، حيث قيل له: إنَّك غيرُ مناسبٍ للعملِ في الشُّرطة، بالرغمِ من أنَّه يُتقن الفنون القتالية (الكونغ فو).

وتقدَّم مرةً للعملِ في مطاعم كنتاكي (K F C) في أحد الفروعِ في الصين، وكان المتقدِّمون أربعةً وعشرين شخصاً، فقبلوهم جميعاً ما عدا (جاك ما).

وربَّما لو رُفِض معه شخصٌ آخر لَهان عليه الخَطْب، أمَّا أن يُقبلوا جميعاً ويُرفَضَ وحدَه فهذا ما لا تكاد تحمِله الجبال.

وبعدَ ذلك حصَّل قَبولاً في جامعةٍ تُعدُّ الأسوأَ في مدينتِه، فدخلَها ونالَ شهادتَها في قسمَ اللغة الإنكليزية.

ثـمَّ صـار يعمـلُ مدرِّسـاً للغـة الإنكليزيـة بــ(١٢) دولاراً فـي الشـهر، لا تـكاد تكفيـه ثمـنَ مواصـلات، لكنَّه عَـدَّ ذلك فرصـةً لتقويةِ

لغتِـه الإنكليزيـة التـي سـتُخرجُه من القوقعـةِ التـي كانتِ الصِّيـنُ قابعةً فيهـا، منعزلـةً عـن العالـمِ الغربي.

و(حيـث تكـون المصائـب والمصاعـب وتكثـرُ الشَّـكوى، فثَـمَّ الحـلُّ)[1]، فهـذا الرَّاتـب لـم يقنـعْ (جاك مـا) رغـمَ أنَّ هـذا العمل هو الوحيـد الـذي قُبِـل به.

فقد سافر في رحلة إلى مدينة سياتل في أمريكا، وخلالَ جلوسِه عندَ أحدِ أصدقائِه هناك سمعَ عن اختراعٍ جديدٍ هو الشبكة العنكبوتية العالمية (الإنترنت).

وعلَّمـه صديقُـه كيفيـةَ اسـتخدامِها، فبحـث (جـاك ما) عـن أحدِ المنتجـات فيهـا، ففوجِـئَ أنَّـه لـم يجـدْ أيَّ نتائـجَ مصدرُهـا الصين.

فانقدحتْ في ذهنِه فكرةُ إنشاءِ موقعٍ إلكترونيٍّ في الصِّين من أجل تسويقِ البضائع.

ثمَّ صار يقول لنفسِه:

يا تُرى!!!

أيمكنُ أن يلتفتَ أحدٌ إلى هذا الموقع الإلكتروني بين المواقعِ التي تربَّعت على عرشِ السُّوق؟!!!

---

(١) من كلام (جاك ما).

وهل سيقتنعُ النَّاسُ به ويتركونَ غيرَه ليتعاملوا معه؟!

ولعلَّي سأفشلُ كما فشلتُ من قبل!

ولكنْ!!

لِمَ الخوف؟!!

ألمْ أتذوقْ طعمَ السُّقوطِ حتّى ألِفْتُه وألِفَني؟!!

ألم يكنِ السُّقوطُ قريناً لي في كثيرٍ من مراحلِ حياتي؟!!

ألم أحملْه معي في حقائبي وأنا أنتظرُ قطارَ النَّجاح؟!!

لقدْ صارتْ تلك الحقائبُ عزيزةً عليَّ رغمَ أنَّا تَعوقُني عن الوصولِ إلى القطار.

وقدِ اعتدتُ السيرَ وأنا أحملُ هذه الحقائب، وسوف يأتي اليوم الذي أستبدلُ فيه هذه الحقائبَ بأخرى مليئةٍ نجاحاً، فأنطلقُ خفيفاً لا أستشعرُ ثِقلَ ما أحمل.

إنِّي لأرى هذا اليومَ قريباً ولو رآه غيري بعيداً، وأكادُ ألمسُ ذاك القطارَ بيديَّ هاتين، ولولا أن أُتَّهمَ بالمبالغةِ لوصفتُ للنَّاسِ غرفَ القطارِ ومقاعدَه.

إنَّي لألمحُ مقعدي هناك في المقدِّمة، إنَّه شاغرٌ وينتظرُ قدومي لآتيَ وأجلسَ فيه، بل لأقودَ أنا ذاك القطار.

ولكنَّه حين عرضَ فكرةَ الموقعِ الإلكتروني على مَن حَولَه قالوا له: إنَّ هذه أغبى فكرةٍ توصَلتَ إليها في حياتِك.

ثمَّ راحوا يسلقونَه بألسنتِهم الحِداد، ويتضاحكونَ ممَّا سيؤولُ حالُه إليه بعد تطبيقِ هذه الفكرةِ الغبيةِ بزعمِهم.

فلم يغضب (جاك ما) منهم، ولم يعاتبْهم على استهزائهم فقد مرَّ بمثلِ هذه الحالة مراتٍ كثيرة، فإنَّه كالغريق، وهل يخشى الغريقُ من البللِ؟!!

بل ردَّ عليهم بأنَّ هناك من يستخدم هذه الفكرةَ في أمريكا، وطالما أنَّ النَّاسَ تستخدمُها، فلماذا أنعتُها بالغباء؟!

وكيفَ لي أن أحكمَ عليها وأنا لمَّا أجرِّبْها، فلماذا لا أجرِّبُها وقد جرَّبتُ كثيراً من الأفكارِ غيرها؟!

أأخشى من السُّقوط وقد صارَ عندي مألوفاً؟!!

تعوَّدْتُ مَسَّ الضُّرِّ حَتَّى أَلِفْتُهُ ... وأسلَمني طولُ البلاءِ إِلى الصَّبْرِ

ووسَّع صدري للأذى الأُنسُ بالأذى ... وقد كنتُ أحياناً يَضيقُ به صدريْ[1]

---

(١) لهذين البيتين قصة طريفة جرتْ مع الشاعر أبي العتاهية، انظرها في (زهر الآداب) و(التذكرة الحمدونية).

وقد رمى (جاك ما) بكلامِ اللائمين عرضَ الحائط، واستطاع أن يقنعَ عدداً من أصدقائه بفكرتِه في عام ١٩٩٨، وقامَ هو وهذه المجموعة بجمع مبلغِ ستينَ ألفَ دولارٍ أمريكي، كانتْ نواةَ موقعِ علي بابا (A L I B A B A) الإلكتروني.

وقد اتَّخذَ من منزلِه موقعاً لهذه الشَّركة التي أسسها؛ لعدمِ القدرةِ على استئجارِ مكانٍ لها.

ولم يكن ذلك العمل هو خاتمةَ الأحزان في مسيرةِ (جاك ما)، فقد واجهَه المزيدُ من العقباتِ الجِسام.

حيث لم تجنِ تلك الشركةُ الناشئةُ أيَّ أرباحٍ تُذكرُ خلال السَّنواتِ الثلاثِ الأولى من العمل.

ونظراً إلى الخسائرِ التي كانت تمرُّ بها الشركة، فقد امتنع معظمُ البنوك عن التعاملِ مع جاك أو تقديمِ خِدْماتِ تبادلِ المدفوعات؛ لتُغلَقَ كلُّ الأبوابِ الماليةِ في وجهِه.

فلم يستسلم (جاك ما) ولا فكَّرَ في الانتحار، بل جلس يفكِّرُ في حلٍّ لهذه الأزْمة التي مرَتْ بشركتِه الناشئة.

ثم لاحتْ له فكرةٌ لإنشاءِ برنامجٍ خاصٍّ للتحويلاتِ المالية أطلقَ عليه اسم (A l I P a y).

وبالفعل فقد بدأَ الحظُّ يبتسمُ في وجهه، ويُنسيه شيئاً من آلامِه، حيث بدأَ موقعُ علي بابا بنقل المدفوعاتِ الخاصةِ بالشركة والتعاملِ معها بالعُملاتِ المختلفةِ التي كانتْ متداولةً بين البائعين والمشترين في أنحاءِ العالم، دون تقييدِ البائعِ أو المشتري بعُملةٍ معينة .

وقد بدأت الفكرة تلقى استحساناً لدى المستخدمين؛ لأنَّها سهَّلتْ عليهم التعاملَ مع السوق، وحقَّقتْ رغَباتِهم في عملية البيع والشِراء.

ويوماً بعدَ يوم صارَ مرتادو موقعِ (علي بابا) يَكثرون، ولم يعدْ منتقدو الفكرة يجرؤون على انتقادِها، فقد تجاوزَ عددُ مستخدمي هذا الموقع (٨٠٠) مِليونِ مستخدم.

وصار عددُ الموظفين في هذا الموقع أكثرَ من (٢٢) ألفاً.

وصار (جاك ما) أغنى رجلٍ في الصِّينِ وآسيا كلِّها، ومن الأغنياء المعدودين في العالم بثروةٍ تتجاوز (٤٢) مليارَ دولار.

وصار هذا الرَّجل ملهِماً لكثيرٍ من الباحثين عن النجاح في هذه الحياة، ومثالاً يُحتذى في تحدِّي الصِّعاب، والصُّمودِ في وجهِها، والقيامِ بعدَ السُّقوط، ولو تكرَّر هذا السُّقوط.

بل إنَّ كثيراً من الجامعات التي رفضتْه من قبلُ طالباً، صارت

تستدعيه الآن محاضراً ليلقيَ فيها محاضراتٍ يشرحُ فيها للطلاب تجارِبَه التي خاضها حتى وصل إلى ما وصل إليه من نجاح.

لقد عانى (جاك ما) كثيراً، ولقيَ أهوالاً عظاماً في مسيرته.

سقط كثيراً، لكنَّه كان يقوم بعد كلِّ سقطةٍ ويعاودُ السيرَ من جديد؛ لأنَّه يعلم أنَّ تلك السَّقطة ليست نهايةَ المشوار.

ولم تكن تلك السَّقطَات في الجانب المادي فحسب، بل إنَّه سقط في دراسته، وسقط في حياته الاجتماعية، حيث انفضَّ عنه كثيرٌ ممّن حولَه لاعتقادهم بأنَّه فاشل.

لكنَّه كان يعلم في قرارة نفسه بأنَّ باب النجاح لا بدَّ أن يُفتح في يومٍ ما.

فيا من أصابه اليأس لأنَّه سقط سقطةً واحدةً في حياته!!

أو نكص عن طريقه لأنَّه سمع بعض التعليقات الجارحة!!

أو تكاسل عن إتمام الطريق الذي بدأه لأنَّه واجه بعض الصعوبات التي عاقته عن إتمام ذلك الطريق!!!

أو رضي بالفشل لأنَّه رأى أنَّ النجاحَ بعيدٌ بعيدٌ.

هل سمعت بقانون (الجهود المهدورة)؟!!

هذا القانون الذي أدركتْه الحيواناتُ بغريزتها، وصارت تسيرُ عليه.

لكنَّ المخلوق الوحيد الذي لا يطبقه في حياته هو الإنسان.

فهل تعلم أن الأسد لا ينجح إلا في ربع محاولاته في الصيد؛ أي أنه يفشل في ٧٥٪ من محاولاته وينجح في ٢٥٪ منها فقط، ورغم ذلك فهو لا ييأس من إعادة المحاولة مراتٍ كثيرة حتى يحظى بتلك الفريسة؟!!

وهل تعلم أنَّ أكثر من نصف بيوض الأسماك تُلتهَم قبل أن تفقس وتصير سمكاً؟!!

وهل تعلم أنَّ معظم أمطار العالم تهطل في المحيطات؟!!!

وهل بلغكَ أنَّ نصف مواليد الدببة تموت قبل البلوغ، وأنَّ معظم بذور الأشجار تأكلها العصافير.

ومع ذلك فإنَّ الحياة تستمرُّ لدى الحيوانات.

إنَّ الفشل الوحيد هو «التوقف عن المحاولة»، والنجاح ليس أن يكون لديك سيرة حياة خالية من العثرات والسقطات... بل النجاح هو أن تمشي فوق أخطائك وتتخطى كل مرحلة ذهبت جهودك فيها هدراً وتتطلع الى المرحلة المقبلة؛ لتكونَ من روَّادها.

وصدق الإمام عليٌّ رضي الله عنه حين قال:

اصبِرْ على مَضَضِ الإدلاجِ في السَّحَرِ ... وفي الرَّواحِ إلى الحاجاتِ والبُكرِ

لا تَضجَرَنَّ ولا يَحزُنْكَ مَطلَبُها ... فالنُّجحُ يَتلَفُ بَينَ العَجزِ والضَّجَرِ

إنِّي رَأَيتُ وفي الأَيَّامِ تَجرِبَةٌ ... للصَّبرِ عاقِبَةً مَحمودَةَ الأَثَرِ

وقَلَّ مَنْ جَدَّ في أَمرٍ تَطلَّبُهُ ... واستَصْحَبَ الصَّبرَ إلا فازَ بالظَّفَرِ

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٧
الطفلُ النَّازح الذي صنع ما لا يصنعُه أشدَّاءُ الرِّجال	
المحنُ تصنعُ الرِّجال.. (طلال أبوغزاله)	١١
الشاب الذي كان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يقدِّمه على الشيوخ	
عبد الله بن عباس	٤٩
بعد التشرُّد والضياع، إمامٌ من أئمة السُّنَّة وعلَمٌ من الأعلام، في بلاد الإسلام	
الإمام القَعنبي	٥٩
وماذا يبتغي الشعراءُ منِّي... وقد جاوزتُ حدَّ الأربعين	
الإمام الكسائي	٧٥

الموضوع	الصفحة

الفاتح الحقيقيُّ لبلاد الأندلس وهو أعرجُ قد جاوز السبعين

موسى بن نُصير ٩٣

صانع الأقفال الذي صار من أعلم أهل زمانه

أبو بكر القفَّال المَروَزيّ ١٠٣

مِن خادمٍ في الجامع الأزهر إلى أحد أعظم شيوخه وعلمائه

الشيخ خالد الأزهري (الوقَّاد)، شارح ألفية ابن مالك ١٢٣

العالم الذي نال شهادة الطبِّ وهو مدرِّسٌ في الكلية

الطبيب المفتي أبو اليسر عابدين ١٤١

المرأة الأمية التي حفظت القرآن بعدَ الثمانين

المسنَّة نعيمة وهبي التي حفظت القرآن بعد الثمانين ١٥٩

المعلّم الفقير الذي صار من أغنياء العالم

الملياردير جاك ما (مؤسس وصاحب موقع علي بابا) ١٧١

وفي الختام...

فقد اجتهدتُ أن أُخرِجَ هذا الكتابَ قليلَ الأخطاء؛ لأنَّ اللهَ تعالى أبى أن يَسْلمَ كتابٌ من الخطأِ إلا كتابُه الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

ولقد صَدَقَ القاضي الفاضل عبد الرَّحيم بن عليّ البيسانيّ حين أرسلَ إلى العماد الأصفهاني قائلا له: **(إنِّي رأيتُ أنَّه لا يَكتُبُ إنسانٌ كتاباً في يومِه، إلا قالَ في غَدِهِ: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسنَ، ولو زِيدَ كذا لكان يُستَحسَنُ، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضلَ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجملَ، وهذا مِنْ أعظَمِ العِبَرِ، وهو دليلٌ علَى استيلاءِ النَّقصِ علَى جُملةِ البَشَر)**.

ولذا فأنا أتقدم بالشكرِ من أعماق قلبي لمن وجدَ خطأً ونبَّهني إليه، وأسألُ اللهَ تعالى أن يُعظِمَ له الجزاء.

وهذا بريدي الإلكتروني لمن يتفضل بتقديم النصيحة:

monaf197719@gmail.com

9 789957 559281

9 789957 559298